

منتدى الكتب العربية والمعربة
عالم الكتب

محمود السعدنى



جنة رضوان

بين المقدمة .. وأجراس السيرك

بقلم يوسف السباعي

أترى لمقدمتي هذه قيمة ؟ ..

أتراني لو صنعت للمؤلف عقود المديح .. وقلت عنه أنه عبقرى لوذعى ألمعى .. وقلت انه قد فاق جوركي وتشيكوف وموباسان وزفيج .. وان قصصه بلغت من دقة التحليـــل وروعة الوصف وصدق الحوار .. ما لم تبلغه قصص من سبقوه من عباقرة الأدب وأساطين القصة ..

أتراني لو قلت عنه كل هذا .. ولم يكن هو شيئا من هذا هل يصدقني القراء .. ويكذبون أنفسهم وذوقهم وحكمهم .

هل بلغ كائن من كان من قوة السيطرة والاقناع .. الحد الذي يستطيع تضليل القراء عن مشاعرهم الصـــادقة .. وتشكيكهم في أذواقهم السليمة .. وتحويلهم عن أحـــكامهم الحقة ..

واذا كان المؤلف .. هو حقا .. هذا الذى قلته .. عبقريا ألمعيا .. لوذعيا .. واذا كانت قصصه قد بلغت مثلا هـــذه الدقة والروعة والصدق ..

أية قيمة لمقدمتي الهزيلة بجوار عبقريته وألمعيته ولوذعيته ، وما حاجتي وحاجة المؤلف وحاجة القراء الى أن انبههم ببعض الألفاظ الرنانة المعادة المكررة .. الى ما ينفذ الى قلوبهم .. ويهز مشاعرهم .. ويرسب في أعماقهم ..

أية قيمة لأجراس المعلن الرنانة الجوفاء .. بالنسبة لاصالة البضاعة وجودة السلعة ..

أيهما أفيد لك .. وأصدق أثرا في نفسك .. الـكلمات التى تصف لك التفاحة بأنها حمراء ولذيذة .. أم لحم التفاحة الأبيض السكرى الذى تغرس فيه أسنانك ، وتمتع بمذاقه لسانك ..

أيهما أكثر خلودا فى هــذا الكتاب .. مقدمتى بكلماتهـا المتفرقة التى تحوم حول المؤلف وتتسلق على قصصه كالنبات الطفيلي .. أم صلب الكتاب نفسه .. بما فيه من أشخاص وأجواء وسرد وحوار ..

هل ابتاع القارىء هذا الكتاب ليقرأ لمؤلفه أم لى ..

انى أعتبر دائما .. الكاتب أيا كان .. هو الأصل .. أما المقدم .. والمعلق .. والناقد ، والمفسر ، كل هؤلاء فروع للأصول .. أو هوامش للصحائف ..

وأنا أقدم هذا الكتاب لأؤكد قبل كل شىء عدم جـــدوى المقدمة .. التى يقدم بها الكاتب .. كاتب آخر .. ولأؤكد انني أحس .. وأنا أقدم الكتاب احساس حارس السيرك الذى يدق بجرسه ليعلن للناس انه هنا كذا .. وكذا .. وكذا ..

وبقى على بعد هذا الايضاح الذى شغلت به معظم مكان المقدمة .. ان أقدم المؤلف .. وأقول رأيى فيه وفى قصصه .

وأنا أسأل القراء أين الذوق أن أسبقهم بحكمى .. وأفرض عليهم رأيى قبل أن يكونوا هم رأيهم ..

ألم يكن من الخير أن أضع مقدمتى فى ذيل الـــكتاب .. لأوضح لهم رأيي قد يشاركونني فيه وقد يختلفون معى فيه

ولكنى فى هذا الحال لن أكون مقدما .. بل معلقا .. أو ناقدا ..

ومع ذلك فليس لى أمامى الا أن أقدم الكتاب .. وعذرى بعد ما قلت .. انى أقوم بمجرد واسطة تعـــارف .. وانى لا أفعل أكثر من أن .. أقف بين السعدنى وبين القارىء لأقول لكليهما .. صديقى السعدنى .. صديقى القارىء ..

وحتى هذا العذر .. أحس كثيرا بضيقه .. لأنى أخشى أن يهز صديقى القارىء رأسه .. ليســألنى من أنت .. ثم يشد على يد السعدنى فى الشوق .. ويحيه قائلا « ازيك يا محمود » ..

أجل .. لم لا يكون القارئ الذى أقدم له كتاب السعدنى أعرف بالسعدنى منى ؟ ..

المسألة كلها اذا .. اقحام لا مبرر له ..

ومع ذلك ليس أمامى الا أن اقدمه .. وأمرى لله ..

محمود السعدنى .. كما أعرفه .. انسان ذكى .. متهور .. شديد الحساسية .. سريع الالتقاط .. حاضر النكتة .. سريع الخاطر ..

وهذه الصفات لاشك تجعل منه كاتب قصة ممتاز .. فهو يستطيع أن يختزن فى ذاكرته صورا من حياته وحياة الغير حافلة بالتفاصيل زاخرة بالدقائق .. وهو يستطيع أن يلتقط من الشخصيات الجمة المحيطة به فى ماضـــيه وحاضره .. ما يجعل منه رصيد ضخم يستغله فى قصصه بكل ما دق من سماته .. وما خفى من صفاته .. وما تعقد من انفعالاته ..

وقد سمعت من أحد الزملاء أن محمود السعدنى يستطيع أن يحكى خيرا مما يكتب ، وانه ربما كان أكثر نجاحا لو نشر بالتليفزيون منه بالكتابة ..

وقد يكون مبعث هـذا القول ان السـعدنى راوية ممتاز ومقلد ماهر ومحدث لبق خفيف الدم .. وانه أقدر على التعبير باللسان منه بالقلم ..

وقد يكون مبعثه .. ان محمود لا يملك الرصـيد اللغوى الضخم .. الذى يعتبر كبار الكتاب القدم الأول للكاتب ..

ومع ذلك فانا لا أرى هذا الرأى .. وأدفع ببطلانه .. بالدليل الواقعى وهو قصص محمود .. فهى ـ أعنى الكثير منها ـ قصص ممتازة .. لا يمكن أن يحس فيها بنقص مبعثه الحاجة الى هذا الرصيد اللغوى المزعوم .

واعتقد ان معظم كتاب القصص الجدد .. قد قدموا مادة ممتازة رغم خلوهم جميعا من هذا الرصيد .. وانهم قـد اثبتوا ان أهم مقومات الكاتب الناجح ليس الرصيد اللغوى بل القدرة على التعبير عن الاحساس الصـادق بابسـط .. الالفاظ السهلة المتداولة على الالسنة .. وانه لم يعد يعيب الكاتب ابدا ان يطبق الكلمة ثم يضع فوقها رقما ثم يشرحها فى هامش الكتاب بلفظ اسهل ..

وقصص السعدنى معبرة ـ فيما أعتقد ـ عن تجارب واقعية وشخوص حية عرفهم وتقابل معهم .. ومعظمهـا من شرائح أو قطاعات منتظمة من الحياة .. يبرز فيها صدق الحادثة .. وحياة الشخصية .. وان كانت واهية البناء .. اذ قورنت بقصة من قصص ستيفن زفيج .. شأنها فى ذلك شأن الكثير من قصص الكتاب الروس التى تبنى على مجرد وصف لشخصية أو لموقف لقصة « زميلان فى الشقاوة » .. أو « الزوجة » لتشيكوف ..

وقد سبق أن أبديت رأيى فى هذا النوع من القصص بانه أسهل القصص تناولا وأقلها جهدا .. ومع ذلك لا أحب أن أفرض رأيى هذا على أحد .. ولا سيما .. وان هذا النوع هو موضة الكتابة .. فى هذه الأيام ..

وبعد .. هل افلحت فى تقديم المؤلف والكتاب أم كانت مقدمتى لا تعدو دقات الأجراس على أبواب السيرك .. على أية حال .. ليتفضل القراء الى الداخل .. أعنى داخل الكتاب وليحكموا بأنفسهم على السعدنى .. وكتابه ..

والسلام عليكم ..

« يوسف السباعى »

جنة رضوان ..



خيم السكون والليل على « دحديرة » ابن طولون ، ولفت الظلمة الحالكة كل شيء في الممر الضيق الملتوى الملتصق بجدار الجامع العتيق ، وخلا الطريق من كل شيء الا من وقع أقدام بعض الرجال المتعبين العائدين الى منازلهم في أعلا الدحديرة ، أو طفل يجلس القرفصاء بجوار الحائط يقضى حاجة .

ولكن من أول الدحديرة كان يبدو نور قهوة المعلم سلطان باهرا كضوء الشمس ، وصوت الراديو يلعلع من بعيد ، وعلى الضوء كانت أشباح الجالسين في حلقات تظهر بوضوح ، وهم يتبادلون الجوزة فيما بينهم في استرخاء طبيعي لذيذ . والواد برهومة يلف كالدبور حول الزبائن والكراسي وصوته يملأ الجو ع الفاضى وع المليان . وعندما شاهد المعلم رضوان مقبلا من

بعيد على أول الدحديرة هتف وهو يضبط ساعته على التاسعة تماما :

- كراسى يا واد للمعلم رضوان وصحبته ..

ومع أنه لم يكن هناك واد سيلبى نداء برهومة ، الا أنها كانت عادته دائما كلما لمح المعلم رضوان مقبلا من بعيد . والمعلم رضـــوان زبون دائم منـذ أكثر من عشرة أعوام ، لم يتخلف يوما عن موعد حضوره الى المقهى كل مساء في التاسعة تماما . فهو يعمل خبازا في فرن مجاور للمقهى ، وهو يبدأ عمله في الثانية عشرة تماما ، فهو يقضى في المقهى كل يوم ثلاث ساعات ، وكانت فلسفته دائما التى يشرحها لكل من يسأله عن عسر مواظبته على موعد المقهى :

- وحنعمل ايه ، عشان يبقى البيت جنب الغيط ، مش أحسن ما نروح سيما ولا نسكر ونعمل منكر مايرضيش الله !

والحقيقـة ان المعلم رضوان لم يغضب الله أبدا .. فهـو في الخمسين من عمره الآن ، وهو منذ أن ماتت زوجته وهـو يعيش حياته على وتيرة واحدة . من الثانية عشرة حتى الصباح أمام النار يخبز العيش ، ومن الصباح حتى غروب الشمس نائم في البيت ، ومن التاسعة حتى بدء العمل في الفرن على مقهى المعلم سلطان . وهو لا يأتى الى المقهى وحده ، بل دائما تحوطه شلة من الأصدقاء ، هو دائما أعلمهم ، ودائما أغناهم ، فجميع الطلبات التى تنزل الأرضية على حساب المعلم رضوان وفى ذلك المساء عندما حضر ومعه شلته اختاروا مكانا خارج المقهى وجلس صـــامتا يكركر في الشيشـــة العجمى التى لا تفارق فمه أبدا مادام هو موجود في مقهى المعلم سلطان ، ولكنه فجأة قطع الصمت المخيم على الجميع وهتف في صوت ممطوط :

- أنا حلمت حلم النهارده وربنا يجعله خير ..

وهتف الكل في نفس واحد :

- خير انشالله ..

وعاد المعلم رضوان يقول في نفس الصوت المنغم الممطوط :

- خير !! حلمت ان واحد جه صحانى م النوم وقالى قوم يا رضـــوان ، قلتله على فين ، قالى الى خلقك عاوزك ، قلت سبحان الله لا اله الا الله .

وبلا سبب أو مبرر مفهوم ، هتف أحد الجالسين على الفور :
– يا سلام يا معلم .. يحيي العظام وهي رميم .
– أمال ، قدرة ، الغرض أنا قمت معاه على طول .. فضلنا ماشيين مع بعض لما صادفنا باب أخضر دخلنا منه .
وقطع الحديث رجل آخر ، هتف وجسمه كله يهتز من النشوة .
– الله أكبر .. ربنا يوعدنا ، حاكم الباب الأخضر ده خير .
وفي ثقة واطمئنان ، قال المعلم رضوان :
– أمال !.. الغرض دخلنا م الباب الأخضر بصيت لقيتلك جناين على كل لون . ورد ، وزرع ، وخضرة ترد الروح ، وفواكه من كل صنف مالهاش سعر .. جوافه ، وفول أخضر ، وتفاح امريكاني م اللي كان بيجي هنا قبل الحرب ، حاكم النوع اللي شفته ده في الحلم ، عنيه ماشفتوش بعد الحرب أبدا ..
ورد شاب صغير كان يجلس مع الجمع المحتشد حول المعلم رضوان :
– يابخت اللي عاش قبل الحرب ، ده أبويا بيقول ان العشر بيضات كانوا بقرش واحد .
وعلق بعض الجالسين على كلام الشاب بفتور .. وعاد المعلم رضوان فاستأنف حديثه على الفور :
– الغرض بصيت لقيت في الناحية التانية وحوش من كل نوع ، غزلان تلاقي ، سبوعة تلاقي ، لبو تلاقي .. انما هادية وواقفة ساكتة بأمر ربها . سألت الجدع اللي معايا في الحلم ، قلتله احنا فين ؟ .. قالي احنا في الجنة ياعبيط ، وهو قال الكلمتين دول .. وبصيت مالقتوش قدامي وصحيت م النوم قلت اللهم اجعله خير يارب .
وهتف الجميع في نفس واحد :
– خير انشاالله ..
وقال واحد :
– ده ربنا كتبلك طولة العمر ، حاكم الموت في الحلم يعني عمر طويل .. كل شيء يبقى عكسه في الأحلام .

وضحك المعلم رضوان في فتور .. وقال :
– والا الموت يا سيدي ، ما كلنا لها ، حد بيخلل فيها .
وقال برعومة الترمسون ، وكان قد سمع شطرا من الحديث :
– أبدا وحياتك يا معلم .. شقى وآخرتها قطنة ، ويارب نطولها .
وجذب المعلم رضوان عدة أنفاس متلاحقة محمومة من الشيشة ، ثم قال في هدوء :
– ياعم والله بنتمناها ، حيه مقابلة وربنا حد يطولها .. بس ربنا يجعل آخرتنا حلوة ، ونشوف الجنة ..
وسكت قليلا قبل أن يقول :
– دي الجنة حلوه ياجدعان ، اللهم صلي على أجدع نبي ..
ثم رفع يديه فجأة الى السماء .. وهتف على الفور :
– الفاتحة على روح أمواتنا وأموات المسلمين ..
ورفع الجميع أيديهم الى السماء ، وقرأوا الفاتحة في صوت خفيض ثم مسحوا وجوههم بأيديهم وجلسوا صامتين ، وقطع الصمت واحد منهم ، قال فجأة وكأنه يريد أن يطمئن نفسه :
– الجنة حلوه ، بس مين يطولها يامعلم .
وفي الحال رفع المعلم رضوان ساقه ووضعها على الساق الأخرى ، ومال بنصفه الأعلى الى الأمام ، ونظر بعينيه الضيقتين الى محدثه ، وقال في هدوء شديد :
– كل المسلمين هيطولوها ، حاكم النبي بتاعنا متشفع لنا ، ووارد في الكتب حديث عن النبي بيقول « يارب أمة المسلمين أنا متشفع ليها » .
وفتح السائل فمه في دهشة وعجب ، وقال :
– يا سلام ع القدرة يا جدعان ، يبقى يعني الواحد هيشوف الجنة ، سبحان الله . أنا كنت بقول الجماعة الفقرا اللي زي حالتنا عمرهم ما هيشوفوا ميتها ..
وقال المعلم رضوان في ثقة العالم بالأمور :
– كدب ، مافيش حاجة اسمها غني وفقير عند ربنا ، كله يوم القيامة واحد . تقف في طابور واحد قدام بابين ، باب أخضر وباب أحمر . الباب الأخضر ده الجنة ، والأحمر النار والعياذ بالله . اللي مكتوبله الجنة يخش م الباب الأخضر ،

والى بعيد عنكم مكتوب عليه النار يخش م الباب الأحمر . اللى هيخش م الباب الأخضر يبص يلاقى على طول الجناين فى وشه . جناين مالهاش حدود ، ويلاقى السرايات على الجنبين ، كل واحد بيستلم سراية ، وحاكم سرايات الجنة مش كبيرة ، بتويك على أد الواحد . وعيه كل الحكاية دورين . أول دور من غير مؤاخذة للأكل بس ، وتانى دور للنوم . وهناك نظام مفيش بعد كده . الواحد يصحى الساعة حداشر ، اتناشر .. على مهله ، مفيش شغل هناك ، وساعة ما يصحى ينزل يغسل وشه ، ويلبس جلابية بيضة نضيفة ، ويقعد ع السفرة زى الناس الذوات . يبص يلاقى ع السفرة دى كل شىء قلبك يحبه من خيرات الله . فول زى الألماز مهروس فى الزبدة البقرى الحلوه ، وعسل وطحينة ، وجبنه حلوم بخيرها ، واللبن اللى لسه محلوب من بز أمه ، والدقة اللى معمولة بصنعة نضيفة ، والعيش الأبيض اللى زى الفل ، وجرجير وفجل من خيرات ربنا اللى فى الجنينة . قول ياكل ده بقه ، ويقوم يتمشى شوية فى الجناين ، أو يقعد جنب الشباك المفتوح ع البحرى يجيب تراوة ترد الروح ، حاكم كل الشبابيك اللى فى الجنة ع البحرى . والجو دايما هناك خريف يرد الروح ، ولا ترابة تلاقى ، ولا عفارة تلاقى ، حاجة نضافة مفيش بعد كده بقدرة ربنا ..

كان الجمع المحتشد قد أصغى بكل ما فيه من حواس لحديث المعلم رضوان ، وأشرف الجميع على مقاعدهم يستمعون فى نشوة واعجاب وهم يلعقون ألسنتهم تارة ، ويهرشون بين افخاذهم تارة أخرى ويتثاءبون على الدوام . ولم يحاول أحدهم أن يقاطع المعلم رضوان ، فعاد الأخير يسرد القصة فى حماس هادىء جميل :

– المهم بعد كده ، الواحد يطلع تانى ينام ، ماهو مفيش شغل هناك ، ولا قوم روح الفرن ولا شوف العجين ولا كافة حاجة من دى ، كل واحد حر نفسه ، فعلى طول الواحد يطلع ينام تانى لحد الساعة خمسة ، الساعة ستة ، على كيفه . وعند ما يصحى يلاقى السفرة متحضرة ، فراخ عتاقى محمرة ، كتاكيت مشوية ، آرانب بالملوخية ، كبده على كلاوى ..

حاجات م اللى تجرى الدم فى عروق الواحد وتخلى عنيه تفنجل

وتعق المعلم رضوان ريقه ، وكذلك فعل بقية الموجودين .. وسأله واحد :

– مفيش شوية طرشى يا معلم ؟ ..

ورد المعلم فى ثقة بالغة :

– دى مسألة مزاجات بقى ، عاوز طرشى يجيولك ، كافة شىء ترغبه نفسك يحضر على طول ، أمال عيه جنه ليه ؟!

ثم عاد المعلم رضوان يسرد قصته الجميلة .. والآخرون يستمعون فى لذة فائقة :

– بعد الأكل بقى الواحد يغسل ايديه ، مفيش هناك حاجة اسمها تكسل تغسل ايديك ، النضافة واجبة هناك . وبعد كده يجيلك الحور العين ، ستات زى البقلاوة ، حاجة تفتح النفس ، مش زى الستات اللى الواحد بيشوفهم فى السكك دول ، مايفرقش الأحمر والأبيض ، دى مسائل بوليتيكا كلها ، انما هناك حاجة طبيعى بتاعة ربنا ، وكل واحد يختار اللى على كيفه ، حلاله . وعلى أد الواحد مايحرم نفسه من الدنيا دى ، على أد ما يمتع نفسه هناك ، والعين بالعين والسن بالسن ..

وهتف واحد من الجالسين :

– الله أكبر يا معلم .. أد كده ..

ورد المعلم على الفور :

– أمال ، ماهو يعنى ايه حكاية العين بالعين دى ، يعنى زى ما تعمل تلاقى . تهيص فى الدنيا وتلعب تنشوى فى نار جهنم ، تمشى عدل وتشوف أوامر ربنا ، تتمتع زى ما بقولك دلوقت بالظبط ..

وسكت المعلم رضوان قليلا ، ريثما أزاح عمامته الى الخلف قليلا قبل أن يقول :

– المهم الساعة اتناشر بالليل يكون العشا جاهز فى الجنة تنزل تتعشى لقمة خفيفة ، شوية لبن ، حتة مربى ، حتة جبنه ، شوية زتون ، لقمة عيش فينو . وتطلع تتمشى شوية فى التراوة ، وفى القمر الحلو .. حاكم القمر مايختفيش أبدا فى الجنة . يتنه منور على طول . عاوز تشوف حد ، تود حد ،

عاوز تزور جماعة صحابك ، جماعة كده كده .. زى ماانت عاوز ..

وهرش واحد من الجالسين قبل أن يسأل المعلم رضـــوان سؤال محيرا :

– لكن الجنة واسعة قوى يا معلم .. الواحد حيزور الناس فيها ازاى ؟

– لأ ماهو كل جماعة صحاب جنب بعض ، وع العموم ان كنت عاوز تشوف حد فى الجنة بس تتمنى فى نفسك .. وعلى طول تشوفه .

– ازاى دى بقى ؟

وارتبك المعلم رضوان قليلا قبل أن يقول :

– الله !! أهو دا اللى حصل بقى . انت شريكه .

وسكت الرجل ، فقد أفحمه منطق المعلم رضوان .. ودار الهمس بين الجميع ، وتحركت ألسنتهم بتعليقات شتى :

– صحيح يا ناس ربنا قادر على كل شىء ..

– سبحانه .. هوه الغنى ..

– يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ..

– ده ربك كبير ..

وعندما سكتت الأصوات ، وهم المعلم رضوان باستئناف الحديث من جديد ، زعق الواد برعومة كالغراب :

– يا معلم رضوان ، الساعة بقت اتناشر ..

وضرب المعلم يده فى جيب الصـــديرى فانتزع ساعته الضخمه القديمة .. كانت الثانية عشرة تماما .. فأعادها الى جيبه من جديد . وقام فانتحى ببرعومة جانبا وحاسبه على المشاريب ، ثم حيا الجميع من بعيد ، وراح يحث الخطى على بلاط الدحديرة حتى وصل الى الفرن . وعندما اصبح فى فم الباب أحس بوهج النار تكاد تلهب بحرارتها حتى الجدران ، ونسى المعلم رضوان كل شىء ووثب نحو الداخل على عجل ، وخلع جلبابه فعلقه فى رأس المسمار ، ثم قفز الى أسفل وفتح باب الفرن ، فأحس كأنه فتح بوابة جهنم ، وتصبب العرق على جبهته بغزارة وهو يتناول أرغفة العيش ليقذف بها داخل النار ، وفى رأسه تطوف كل الصور التى رســـمها بنفسه للجنة التى لابد وأن يراها فى يوم من الأيام ..

أيام زمان ..



كانت الحجرة التى تدار فيها أنفاس الحشيش ضيقة ، وبشعة للغاية ، وكانت جدرانها كالحة اللون تتخللها خطوط حمراء مستقيمة من أثر عملية اغتيال واسعة النطاق قام بها سكان الحجرة على جيش البق الذى كانت فلوله تمرح على الجدران ، فى ذلك المساء ونحن جلوس نستمع الى أحدنا يدندن بأغنية معروفة ، ونشفط بشدة أنفاس الجوزة المغمسة بالحشيش !

ولم يكن بيننا أحد غريب عن الشلة الا صاحب الحجرة أو « الغرزة » كما يطلق عليها أصحاب المزاج المترددون بالمئات من كل الطبقات والفئات !

وكان رجلا قصيرا دميما ، تآكلت رموش عينيه ، واحمرت جفونه ، واختلط فيهما السواد بالبياض .. وكانتا لشدة ضيقهما وقلقهما تبدوان وكأنهما عينا ثعبان عجوز ..

وكان دائم الثرثرة لا يكف عن الكلام ، كان الحشيش مهمته والكلام هوايته . وكان فنانا فى الحديث ، وهب قدرة طبيعية تجبرك على السماع ، وتشدك اليه شدا ، وكأنك منجذب اليه بتيار صاعق من الكهرباء ..

كان عم محمود يجلس صامتا ومنحرف المزاج لعدم استطاعته الكلام ، لأن صوت أحدنا كان يرتفع بالغناء ..

وحاول عم محمود أن يقطع عليه استمراره فى الغناء فلم يوفق !

وخطرت له فى النهاية فكرة استطاع بها أن يوقف صاحبنا عن المضى فى الغناء وأيضا .. نجح فى أن يجذب انتباهه ويجبره على أن يستمع - معنا - اليه .

وكانت الفكرة بسيطة ضرب عم محمود يده على فخذه ، ثم قال فجأة :

- الدور اللى بتغنيه ده كلام فارغ .

وبهرنا الحكم الذى أصدره عم محمود على الدور الشائع المعروف ، الذى يتردد على شفاه كل الناس .. فهتفنا فى صوت واحد .. وكأننا على اتفاق :

- ليه ؟! ..

وصمت عم محمود قليلا ريثما انتهى من الهرش أسفل ذقنه ثم عض على شفتيه .. وقال :

- كل أدوار .. الغناء الأيام دى فالصو الطرب .. كان زمان .

وهتف أحدنا فى صوت خفيض :

- يا سلام ..

وتهيأت الفرصة لعم محمود فتربع ، ومسح وجهه بذيل جلبابه وقال :

- أمال ، هوه فيه طرب دلوقت ، الطرب كان أيام المظ ، على الحرام من بيتى ما سمعنا طرب بعد كده ..

- بقى طرب زمان كان أحسن ؟ ..

- أمال .. كل حاجة زمان كانت أحسن ..

وسكت عم محمود قليلا ، ثم أضاف :

- حتى الرجالة .. رجالة زمان كانت أجدع ..

- ازاى بقى ؟ ..

- زى ما بقولك .. كان فيه خير ، كان رطـــل اللحمة الشفى الأوزى اللى بينقط سمن .. تشتريه بقرشين .. كان الراجل من دول ياكل رطلين ، ورغيفين عيش قمح ، وشوية سلطة طحينة وبطيخة بالعشرة صاغ .. ويقوم يا بن الباشا يلاطم الحديد ، يضرب ايده فى السقف تفوت ، يشرب حشيش نضيف ، وينام فى الجبل والقرافة ويضرب فى عشرين راجل مايتعبش ..

- انما يا عم محمود دا رطلين لحمه كتير ..

- كتير دلوقت .. عشان مش لحمه بلدى ، لحم زفر يوجع البطن .. الراجل ياكل نص رطل يفضل يعوى طول النهار

- وايه اللى جاب الزقارة عند اللحمة ! ..

- الزمن المهبب ده - كل شىء بقى يطلع شيطانى - عود الدره يطلع من بطن الأرض فى شهر .. م الكيماوى .. وبوابير الحرت ، وبوابير الميه .. كل شىء بقى اصطناعى دلوقت .. حتى الميه بيطلعها الباجور ، حد شاف قبل كده حاجة كده .. الميه .. الميه اللى ماشية فى الترعة بتاعة ربنا جابولها باجور كمان ، سبحان الله !

وتوقف عم محمود قليلا ريثما شفط أنفاسا عميقة من الجوزة ثم انكب على وجهه وراح يكح بشدة ، ويبصق بشكل مضحك

ثم اعتدل بعد أن انتهى من النوبة التى دهمته ، ومسح شاربه براحة يده .. وواصل حديثه على الفور ..

عشان كده مفيش جدعان دلوقت ، زمان كان فيه جدعان تفرح القلب ، القيشاوى بتاع الحسنية ، وعنتر بتاع السبتية والحاج عبد الرسول فى بولاق ، والقاضى فى الدرب الأحمر كانت العالم كلها تعمل حسابهم .. حتى الحكومة ..

– وهيه الجدعنة انك تخوف الناس يا عم محمود ؟ ..

– الله .. أمال الجدعنة تبقى إيه طيب دا الواد عنتر فى نوبة راكب الحصان بتاعه .. حاكم ماكانش فيه ترماى .. ولا حاجات من دى .. وبعدين يا سيدى .. كنا بنحكى فى ايه ؟ ..

– فى حكاية عنتر ..

– أيوه اللهم صلى على النبى .. وكمان ايه ..

– وكمان لماكان راكب الحصان بتاعه ..

– أيوه مظبوط كده يا بن الباشا .. تعرف الحصان من غير مؤاخذه دخل بيه ع البواكى كسر ضلوعه ..

– ضلوع الحصان ؟

– لأ من غير مؤاخذه .. ضلوع عنتر ، تعرف عمل ايه يا بن الباشا ، نزل من فوق الحصان ، واندار ضرب فى الشارع كله ما خلاش دكان فاتح ، ولا قهوة منورة ، ولا واحد ماشى حتى عساكر البوليس طفشوا من قدامه .. وهوه حته كان فيه بوليس أيامها ، دا كان الحكاية كلها عسكرى واحد فى كل شارع ، ومن غير مؤاخذة عجوز زى حلاتى ، وماسك حتة عصايا لا تودى ولا تجيب ..

– وهى الجدعنة يا عم محمود انك تضرب الناس ؟ ..

– الله أمال هيه ايه الجدعنة .. أمال زى دلوقت قبل ماتشبع ضرب فى الواحد تلاقى ميت عسكرى اتلموا حواليك ، وساعات وحياة دينى قبل ما تضرب تلاقى بوليس النجدة واقف قدامك

– ما هى دى المدنية يا عم محمود ..

– مدنيه ايه قول يا باسط ، دى أمور قفر كلها .. دا الواحد زمان كان يخش الخمارة يطلب كاسين براندى ، ويقوم ع البنك يغالط الخواجه يتبلى عليه يقوله أنا مديك جنيه ..

وحياتك عنها وباخد الباقى .. وكاس كمان .. دلوقت قبل ما تكلمه تلاقى عربية النجدة طلعالك ، زى متكون طالعه من تحت عتبة الباب ..

– ما هو زمان كان شغل بلطجة يا عم محمود ..

– بلطجة ايه يا عم قول يا كريم والنبى دا كل شئ دلوقت توماتيكى ..تدوس كده تمشى العربية ، تدوس كده يمشى الترماى تدوس كده يولع النور ، تدوس كده تفتح الراديو ، تدوس كده تطلع الطيارة ، حاجات كفر كلها ، واقترا على ربنا ربنا خلقنا عشان نمشى ع الأرض ، طرنا احنا فى الهوا ، مش ده كفر ، وراح يحاسبنا عليه يوم القيامة ..

– طيب ما هى دى كلها حاجات بتاعة ربنا يا عم محمود ، وتريح الناس كمان ..

– تريح مين يا بن الباشا ، دى حاجات جبن كلها . الراجل زمان كان ينام فى الجبل فى الضلمة ، ويقف قدام الوحوش كان وحش زيهم ، ادا كان فيه ناس متوحشة عن الوحوش ..

يا سلام دا كان فيه عيال ماولدتهومش ولادة ، كان الواد من دول طول وعرض ، وقفاه يطلع متر ، ولو ضرب واحد قلم يموته ، وكان يمشى يقول يا أرض ما عليكى الا أنا ، ويدخل السجن يلبس الحديد ، ويمشى يشخلل بيه زى البنت البكر اللهم صلى على جمال النبى ، كانت حاجات نزاهة ومزاج صحيح مش دلوقت الواحد كله وزنه يطلع ستين كيلو ، وان مشى مشوار صغير يكح ويعدم ، زمان كان فيه جدعان صحيح ..

ما هو الجدعنة مش بالطول والعرض يا عم محمود .. الجدعنة دلوقت بالشغل بالمكسب بالعلم بالوظيفة بالنجاح ..

– كله كدب .. مش صحيح ..

– طيب بذمتك يا عم محمود ، الظابط أجدع ... والا الفتوة ؟

وصمت عم محمود طويلا .. وهرش فى قفاه ، وفى صدره ثم قال :

– بالصراحة يا بن الباشا .. الظابط أحسن ..

– طيب والمهندس جدع .. ولا الفاعل اللي بيشيل الطوب طول النهار على كتفه ..

– برضه المهندس من غير مؤاخذة ..

– طيب ماهو ده اللي احنا بنقوله .. شوف الفاعل اد ايه ، والمهندس اد ايه ..

وسكت عم محمود على غير عادته طويلا ، كان دائم العبث بشاربه وعقله مستغرق فى تفكير عميق ، وبدا وجهه تحت ضوء اللمبة المرتعشة .. صغيرا منقبضا ، عظامه بارزة ، وجلده مترهل ، ومعالمه بارزة أكثر من الشيء المألوف ، ثم خرج عن صمته فجأة .. وقال وكأنما يخاطب نفسه :

– صحيح المهندس أحسن ، غريبة .. اد النعمة انما مخ .. المخ دا يغلب الجدعنة ، شوف اللي اخترع التليفون ده والا الترماى ، والا الراديو ، أهو ده حديد بيتكلم .. والنبى قال الدنيا تنتهى لما يتكلم المولود ، ويتكلم الحديد ، وتطلع الشمس م المغرب ، أهو المولود اتكلم كانوا كاتبين كده فى الجورنال ، أهو الحديد اتكلم ، مافضلشى غير حديت الشمس دى بقى ، وعلى فكرة الزمن اللي احنا فيه ده ، آخر زمن .. ماقيش عالم جيه بعد كده بقى .. لأن دى آخر دنيا ، الواد كده لسه مطلعش م البيضه ، بيشرب سجاير ، وكلمه يصب فيك ، الفلاحين الغلابا عرفوا السينما ، والراديو .. وبيلبسوا جلاليب بيضه دلوقت ، وعلى الطلاق من بيتى أنا أبويا عاش ومات عمره ما قلع الجلبيه الزرقا .. وعيه جلبيه واحدة اللي شفتها عليه من نهار ما شفته دلوقت الفلاح يتلع ويلبس ، يمكن فى السنة جلبيتين تقول خواجه .. والواد ابنك تديله عشرة صاغ فى ايده يصرفها فى ساعة وعاوز تانى زمان كنا ناخد التعريفه ، وساعات مانلاقيهاش .. آخر زمن زى مابقولك ..

ما هى الدنيا بتتقدم يا عم محمود ..

– خليها تتقدم يا بنى ، البركة فيكم انتو يا بن الباشا ، احنا راحت علينا بقى البركة فى الناس الأكسرا اللي طالعه جديد ..

– لا ولسه يا عم محمود ، دا الناس اللي طالعه بعد كده كمان أحسن ..

– يا سلام .. يعنى اكسرا الأكسرا ..

كانت الجلسة قد انقضت ، فنهضنا جميعا ، وسلمنا على محمود .. وخرجنا يتبع بعضنا بعضا ، وعم محمود يتبعنا فى المؤخرة وعندما أصبحنا فى الشارع والتففنا حول العربة الفاخرة التى كانت تنتظرنا عند الباب ، وقف عم محمود ينظر اليها طويلا ، ثم راح يدور حولها فى شغف ، ويده تمسح على عيكلها بحنان ، وكأنها انسان يلاطفه ثم وقف فجأة .. يقول وهو يهتز من الضحك ..

اهى دى الحاجات الخفافى ، على الحرام واحدة من دى للعبد ده ، وأنا سيب الدنيا كلها وأنام فيها .. حاجه ترد الروح صحيح ..

يا سلام لو واحدة زى دى ، وعمارة وقرشين حلوين ، ولا الواحد يشيل هم بكره ، وآكل بكره ، وبعد بكره .. على رأى أم كلثوم ..

وكنا قد دخلنا جميعا فى السيارة ، وتأهبنا للانطلاق .. ورفع عم محمود يده فى حب . وقال وهو يودعنا بابتسامة عادية ..

مع السلامة يا عالم يا اكسرا . البركة فيكم . وفى العالم اللي طالعه زى الورد ..

عالم اكسرا الاكسرا ، زى التفاح الامريكانى بتاع زمان !
وهتفنا جميعا وفى نفس واحد :

– تانى !!

وانطلقت العربة تسابق الريح ..

على الجسر ..



لم يعد فى قرية الهلالية أحد من سكانها داخل منزله لقد هجرها الجميع فى ذلك الصباح المشمس الجميل الى جسر الرياح المنوفى ، وعيونهم متعلقة بالماء الذى راح يجرى متدفقا نحو قناطر شبين ، فقد سرت منذ الصباح الباكر فى انحاء القرية اشاعة عززت وجدان النـاس بالأمل وطيبت نفوسهم بالبهجة عندما همس عبد البارى الخفير فى أذن الشيخ بلال واعظ جامع الهلالية بأن « مركبا » ضخما قد غرق فى الرياح ليلة أمس ، وكانت السفينة فى طريقها الى مصر تحمل براميل كثيرة من الجبنة والزيتون والحلوة الطحينية وأكد عبد البارى الخفير أن شلبى الصياد قد عثر على برميل يتهادى على الماء مع التيار فباعه للخواجه « ينى » بخمسين قرشا ، وكان هذا هو السبب الذى دفع الناس نحو الجسر ينظرون بعيون قلقة أرقها السهر وطول الانتظار عنـد الماء تترقب البراميل التى تسبح مع التيار والتى يستطيع المرء أن يبيعها للخواجا ينى بخمسين قرشا . ولكن الساعات مرت بطيئة متثاقلة على الجموع المنتظرة على الجسر ترقب فى صبر نافد بشائر الكنز الذى يدفعه التيار نحو القناطر دون أن يلوح فى الأفق أى أمل فى ظهور شىء من الكنز المفقود . وبالرغم من هذه الساعات المملة الطويلة ، فقد خلع كثيرون من شبان القرية ملابسهم استعدادا للمعركة التى ستدور حول البراميل العائمة ، ونام البعض الآخر ، والتف الباقون فى دائرة واسعة حول « مرزوق » الجزار يستمعون اليه وهو يروى لهم حوادث

كثيرة من هذا النوع وقعت فى الماضى البعيد عندما كان هو شابا فى ربيع العمر . والنـاس الذين يستمعون يمصمصون شفاههم عجبا واستحسانا وبعضهم يعلق على ما يسمعه بكلمات قصيرة ..

- صحيح الخير شح فى الدنيا يا جدعان !
- ايوه .. الناس بتوع زمان كانوا طيبين ..
- يا سلام على جيل الأيام دى ، عاوز الحرق ..
- ده ربنا كبير ..
- الله أكبر ..

ومرزوق الجزار يسرد حكاياته دون أن يلقى انتبـاها الى تعليقات الناس ، وكلما انتهى من سرد حادثة قفز الى الحادثة الأخرى فى سرد شائق وأسلوب يبرز به أسفه على ما آلت اليه الحال ..

- طيب عارفين أيام سـعد باشــا ، وأنا كنت زى الولاد براهيم ، وسمعت أن مركب غرق فى الرياح ..

ويقطع عليه الحديث صوت يأتى من خلفه :

- يا سلام ، ده الخير كان كتير يا جدعان ..

ويجيب رجل آخر :

- وحتغرق ازاى .. ده فيه ناس عفاريت زرق دلوقت واخدين بالهم عن المراكب ..
- يا راجل عفاريت مين وبتاع مين ، ده من ظلم الناس ..
- أى والله صدقت ، العالم مايقاش يســتاهل ، وهيه العفاريت الزرق راح تعمل ايه ؟ ده كله بأمر ربنا ، عاوزها تغرق .. تغرق ، لكن ده كفر من بنى آدم ..

ويستأنف مرزوق الجزار حديثه ، بوقار أكثر هذه المرة ، مضيفا على الحديث شيئا من الأهمية :

- اتشاهد يا جماعة ، المركب غرقت من هنا ، والبلد طبت فى الرياح وعلى قد سمعى وأنا كنت عيل فى الأيام دى .. المرحوم جدى معوض غطس فى الرياح وكان طلع برميل اللهم صلى على سيدنا النبى حاجة تفرح ! .. أكل ايه ، وشرب ايه وحاجات كتير من خيرات ربنا ! ..

والناس الذين كانوا يعتقدون أن مرزوق الجزار كاذب فى

حديثه كانوا يجلسون بعيدا تحت أشجار الصفصاف العالية على جسر الرياح يعاودون الحديث فى أمر البرميل الذى عثر عليه أحدهم ليلة أمس ، وكان بعضهم يؤكد أن الذى عثر عليه هو شلبى الصياد فقد كان وحده فى الرياح فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وأنه عثر عليه مصادفة وبلا أدنى عناء ، وكان بعضهم يكذب هذا أيضا فلم ير أحد منهم هذا البرميل والخواجا يني نفسه يكذب هذا الزعم ، ولكن من يدرى فقد يكون الخواجا يني يخاف أن يطالبه أحد بالبرميل بعد ذلك فلماذا لا ينكر الحكاية من أساسها ..

كان الناس الذين يجلسون على حرف الرياح ، والآخرون الذين فى الماء عرايا فى انتظار طلائع الكنز قد سئموا الانتظار ولكن أحدا منهم لم يشأ أن ينصرف حتى لا يفوز غيره بالغنيمة كلها ويبوء هو بالخسران المبين .. ولكن عندما انتصف النهار وتوسطت الشمس الأفق راح بعض الناس يتسللون لقضاء أعمالهم قبل ظهور البراميل .. بل انهم لم ينصرفوا الا بعد أن أكد لهم الريس سليمان المشرف على القناطر أن البراميل لا يمكن أن تطفو مع التيار قبل حلول المساء ، وكان مرزوق الجزار قد استبد به التعب والجوع فسكت عن رواية أقاصيصه والذين كانوا حوله اضطجعوا على جنوبهم فوق الأرض .. وعيونهم متعلقة بالتيار الذى كان يتدفق هادئا عميقا نحو قناطر شبين وليس على صفحته أثر لحطام مركب الامس .. وساد الهدوء جسر الرياح فى هذه الساعة ، وتمتم بعضهم وهو نائم بصوت خفيض :

– والله دى قلة عقل يا رجالة !! ..

– موت يا حمار على ما يجيلك العليق ..

وكان من الممكن وقد استبد اليأس بالناس أن تستمر هذه التعليقات الى مالا نهاية ، لولا أن ظهرت « لظيمة » عند الجسر تخطر فى فستانها الاسود اللامع ، وشفتاها تتحركان وتطلقان طرقعات مسموعة ولسانها يلوك فى جوانب حلقها قطعة من اللبان الضخمة وجسدها كله يهتز ويترجرج أثناء سيرها ، وهب النائمون جميعا فاستووا جالسين وهم يحدقون النظر فى جسد لظيمة البض الناعم .. حتى النساء الدميمات ..

الحيفات تسمرت عيونهن على لظيمة وهى تقبل نحو الجمع الحاشد وابتسامتها ترف على فمها الجميل ، وعندما اقتربت منهم حيت القوم ثم جلست الى جوار مرزوق الجزار تسأل عن أخبار الكنز الذى غرق فى قاع الرياح .. كانت تجلس وقد تسمرت عن ساقيها المتلئتين الطويلتين النظيفتين على غير العهد بسيقان الفلاحات التى تشبه أعواد الحطب الجافة .. وتسمرت عيون الشبان على الحسن الصارخ المجسم ، وكل منهم يتمنى فى أعماق نفسه أن يصبح زوجا لها ولو فى الحلم .. ومسح « شندى » صدره وهو ينقلب على الأرض ثم هتف فجأة وكأنه يحدث نفسه :

– لو عشر براميل .. والواحد يبيعهم ويجوز لظيمة !

ونظر اليه بلال نظرة استنكار قبل أن يرد عليه بسخرية لاذعة :

– بقى أنت يا أقرع كمان ، والنبى لو ميت برميل .. دى لظيمة عاوزه واد جدع زى محسوبك ..

– وانت لاقى تاكل ..

– ما هو المصيبه ..

وكان مثل هذا الحديث يتردد بين كل الشبان الجالسين على الجسر فى ذلك الوقت فى انتظار البراميل العائمة كان كل منهم يتمنى لو يتزوج لظيمة .. وكان كل منهم يبتلع حسرته مع ريقه فهو يعلم تماما انه لا يملك شيئا .. وانه لا يستطيع أن يتزوج لظيمة ، وقد سبق لكثيرين أن تقدموا لخطبتها .. ولكنها رفضتهم جميعا ، فلم يكونوا أكفاء لها ، وسرت اشاعة قوية فى القرية تقول ان لظيمة تعشق واحدا من أفندية البندر قبل أن يموت أبوها ، وهى تعرف مصر شبرا شبرا ، وتتكلم بلغة أهلها ، ولها مثل عاداتهم وهى دائما تعلن فى كل مناسبة أنها لا تطيق رائحة فلاح من الذين يطمعون فى الزواج بها .

وعندما ضحكت لظيمة ضحكتها المشهورة ، صاح أكثر من رجل وهم يحركون رقابهم فى الهواء صيحة واحدة :

– يا وعدى ..

وفجأة قالت لظيمة :

— والنبي كل راجل منكم يلاقي برميل لازم يشترى لى قزازة عطر ، ومرود كحل ..

وهتف مرزوق الجزار على الفور :

— قزازة واحدة ؟ ده يبقى مغفل اللى ما يشترى قزازتين .

وضحكت لظيمة وضحك الجميع ، ثم عاد الهدوء يسود المكان من جديد . وسكت الرجال تماما وقد تعلقت أبصارهم بالتيار وراح كل منهم يحلم بالبراميل وقد جاءت طافية مع التيار ، واذا هو يتقدم مطلقا ذراعيه القويتين تضربان فى الماء مستوليا على الكنز . ثم يأتى بزجاجة العطر ويقدمها الى لظيمة ويجلس اليها وحده ، وهى تمد يدها لتأخذ الهدية .. ثم تطلق ضحكتها الرنانة ، وينتهز هذه الفرصة المواتية فيعرض عليها الزواج .. وآه لو رضيت لظيمة ..

آه لو رضيت لظيمة ..

***

هكذا كانت الأفكار تدور فى رأس كل من الحاضرين حتى قطع عليها سبيل الاسترسال صيحة أطلقها أحدهم :

— براميل يا جدعان .

ثم أعقب الصرخة اندفاع عشرات من الأذرع القوية تضرب بشدة فى مياه الرياح لتصل مسرعة الى الكنز العائم على صفحة الماء .. ولم تمض لحظات حتى كان الجميع فى الرياح بعيدا عن الشاطئ وعلى بعد يسير منهم كومة عائمة لا يدرى أحد عنها شيئا ، يدفعها التيار حثيثا نحو القناطر . وكان أسرع الجميع (بلال) . فقد صاح بصوت مرتفع عندما وضع يده على الحبل العائم :

— اوع ايدك .. ماقيش جنس راجل يقول هات حاجه ..

ولكن بالرغم من صرخة بلال القوية وتهديده السافر فقد انقض الجميع على الكنز ، ثم مالبثوا أن غاصوا جميعا تحت الماء .. ثم طفوا على السطح من جديد والحسرة تملأ قلوبهم جميعا . فقد كان الشىء العائم مجرد كميات هائلة من القش حملها التيار معه ..

وعامت الأذرع القوية تضرب الماء متراخية فى طريقها نحو

الشاطئ .. وعندما أصبح الجميع خارج الماء صاح مرزوق الجزار فى ثقة الخبير العالم ..

— يا ناس قلنا آمنوا بالله .. الحاجات دى كانت زمان أيام الناس الطيبين ، تعرفوا حتى ولو غرقت الحاجه الأيام دى تخطفها العفاريت الزرق ولا يتتعتش بيها بنى آدم ..

وبدا كلام مرزوق فى عقد الرجال كخبير من الذين عبروا الرياح حقا لا يقبل الشك ، وراح بعضهم يرتعد من البرد ، وهو يؤمن على قول مرزوق .

— تعرف يا عم مرزوق .. وحياة سيدى حمزة أنا نزلت الميه وأنا عارف انهم شوية قش ..

ويقهقه بلال وهو يقول :

— يا شيخ غور من هنا ، انت كنت حتغرق

وصاحت لظيمة :

— والنبى يا عيال دى باين الحكاية كدب فى كدب ..

وعاد مرزوق يقص ذكرياته السعيدة عن أيام زمان وخيرات زمان التى اختفت باختفاء الناس الطيبين ..

ومضى وقت طويل قبل أن تميل الشمس نحو المغيب .. وهبت ريح باردة من الشمال . وثار الغبار فى عيون الجميع وعاد مرزوق الجزار واقفا وقد أعلن يأسه من ظهور البراميل وقامت من خلفه لظيمة وهى تنفض التراب عن قدميها الجميلتين وسار الاثنان على الجسر فى طريقهما الى القرية وقام من خلفهما كثيرون يتبعونهما على الطريق ذاته .. ولم يلبث الجسر أن خلا من الناس ، ولم يبق هناك سوى بلال وشندى .. فقد أصرا على انتظار البراميل حتى الصباح ..

وعندما صارت الظلمة حالكة ، والريح شديدة البرودة ، ولا حركة ولا حياة ولا صوت سوى نباح الكلاب الجائعة .. وعواء الذئاب الشاردة فى الحقول البعيدة ونقيق الضفادع ينبعث من بعيد ومن قريب اقترح شندى على زميله أن ينصرفا فقد كان الجو ينذر بعاصفة شديدة ومطر غزير ، وقبل أن يبدى بلال رأيه فى الاقتراح صاح شلبى الصياد الذى ثارت الاشاعات حوله بأنه السعيد الذى عثر على البرميل وباعه للخواجه ينى :

ـ مين اللى قاعدين على الجسر دول ؟
وأجابه الصوت :
ـ أنا بلال يا شلبى ..
ـ وقاعد تعمل ايه يا راجل ؟
ـ مستنى البراميل ..
هى انطلت عليك الحكاية انت راخر ؟ .. بقى الولد عبد البارى الغفير مش راح يبطل الكلام الفارغ بتاعه ده ..
وتساءل بلال والغيظ يكاد ينبش قلبه :
ـ ليه هو انت مالقيتش برميل امبارح ؟
وأجابه شلبى مستنكرا :
ـ برميل ايه يا راجل ؟ .. انت بتصدق الكلام ده ؟ .. هو ولد زى عبد البارى يطلعكم على الجسر زى أنفار الترحيل أما دى نكتة يا رجالة !! ..

***

واستدار شلبى الى الناحية الأخرى والشبكة بين يديه ، ثم لم يلبث أن طرحها فى النهر ..
ونهض بلال متثاقلا ومن خلفه شندى وقد أطرق كل منهما مهموما نحو الأرض ، وعندما أمسيا فى مواجهة القناطر استدار ينظران ناحية الرياح .. كان التيار يتدفق سريعا عميقا باردا ولا شىء هناك يطفو على السطح .. والسكون المطبق على الكون يمزقه أحيانا نباح الكلاب الجائعة ، وعواء الذئاب الشاردة فى الحقول البعيدة ، ولم يلبث الرجلان أن استداروا من جديد الى الناحية الأخرى وهما يسرعان الخطى نحو القرية ..

الداورية ..



مضت ساعات طويلة وعفيفى عسكرى البوليس يقف مكانه لم يتحرك منذ أول الليل تحت عامود النور عند أول الكوبرى يتأمل ما حوله فى هدوء بالغ وتفكير عميق .. ومنذ أكثر من عشرين يوما وهو يقف فى نفس المكان الليل بطوله يتأمل ويفكر ويضرب فى مخاليق الله ، ثم يغلبه النعاس عند الفجر .. حتى يحين موعد انتهاء الدوارية فينصب الى حيث يريد ..
وهو فى هذه الساعة أيضا يفكر فى نفس الشىء الذى فكر فيه بالأمس وأول أمس والأيام التى مضت كلها .. يفكر فى هذا النهر الطويل العريض الذى لا يعرف أحد من أين يأتى والى أين ينصب ، وفى المخلوقات الرهيبة المخيفة التى تسكن أسفل قاعه تأكل وتشرب وتعبد الله وأحيانا تطفو على سطح البحر فتخطف واحدا من البشر تقتله أو تبقيه حيا تحت سطح الماء .. وارتعد بدن عفيفى وهو يتلو فى سره « آية الكرسى » ثم عاد يستغرق فى تفكيره ولكنه لم يبتعد كثيرا فقد نزعته من أفكاره ضحكة نسائية ناعمة جميلة أطلقتها امرأة جميلة مرت بها عربة سريعة مثل الريح ، وهذا المنظر يراه عفيفى كثيرا بعد أن وقف هنا عند أول الكوبرى منذ عشرين يوما ، هو منظر يغلى له دمه وتبرز عروقه ، ويجعله

يبصق على القانون كل لحظة لأنه لا يخول له حق القبض على العربات ومن فيها ..

وفكر عفيفي قليلا : لو أن الأمر كله في يده ؟ اذن لشنق كل امرأة تضحك في عربة تمر بها كالريح في الليل ..

ولكن ليس الامر كله في يده ولكن بعض الامر فقط ، فهو يستطيع أن يقبض على المارة وأن يجر منهم من يشاء الى القسم هو أيضا له سلطة ولكنها ناقصة ..

ومرت عربة أخرى فارهة كلمحة العين أمام عفيفي ، ولم تصدر عنها ضحكة ، ولكن في داخلها كان يجري ما هو أدهى وأمر ..

أفندي يسوق العربة وامرأة ملتصقة به ، فلا يدري أحد أهي التي تسوق أم الافندي ، واستغفر الله لهذا الفسق ، وتذكر قريته كفر غنام ، وكيف أن الحياة تمشي فيها على الشرف والفضيلة .. في كفر غنام لا توجد مسخرة ولا توجد بهرجة ، الناس هناك أشراف ينامون في المغرب ويستيقظون مع الصباح ، ويضربون الارض بالفأس ، ويطفحون الدم .. ولا يجدون ما يأكلون ، ولكن هنا في المدينة ينسى الناس ربهم ، وينسون الآخرة ، لذلك ينزل الله المقت والفقر بالناس وينكل بهم لهذا الذي يجري ، امرأة تضحك وامرأة تلتصق بالافندي .. يا داهية سودة ..

لقد مرت عربة أخرى أثارت غبارا أمام عيني عفيفي ، ولكنه استطاع رغم ذلك أن يلمح ما بداخلها .. امرأة جميلة ، وفي هذه المرة تجلس على ركبتي الافندي ، ولفع عفيفي البندقية على كتفيه وضرب كفا بكف واستغفر الله على هـــذا الذنب العظيم ، صحيح ان الضلال عم الدنيا كلها ، وعما قريب .. سيسخط الله الناس قرودا أو وحوشا أو ربما خنافس .. وصراصير وتمتم عفيفي بكلمات يطلب من الله أن يعجل بانتهاء عمره قبل أن يحل غضبه على الناس فينجو من هذا البلاء العظيم ، والله يرحمه جده عبد السلام كان يردد هذه الامنية كثيرا ، وكان يتنبأ للعالم بالخراب لأن الفساد قد انتشر فيه ..

وراح عفيفي يعد الشهور الباقية له في خـدمة بوليس

طرقات النظام ، لم يبق له سوى أربعة شهور ســيقبض مكافأته في نهايتها ويسرع بالعودة الى كفر غنام فيتزوج من بهية بنت عمه ويعيش هناك يصلي ويصوم حتى يحين أجله الموعود ..

ولكن المكافأة لا يمكن أن تكفي للزواج والاقامة .. وهو لا يملك شيئا في كفر غنام سوى دار قديمة لابد أن حيطانها قد ابتلعت الآن ، ولكنه يستطيع العمل في مصر ، فهو يعرف كل شيء فيها ، وله معارف كثيرون ، منهم حسن أفندي الضابط وهو رجل طيب ويستطيع أن يلحقه بأي عمل شريف ، ولكن لا .. انه لن يبقى في مصر يوما واحدا انها بلد المساخر ..

وأسعفت الأقدار عفيفي بالدليـــل فقد مرت عربة جميلة تتهادى كالمركب الشراعي في النيل وفي داخلها تجري مناظر .. يا هوه .. ان عفيفي لا يستطيع أن يرددها حتى بينه وبين نفسه ..

هؤلاء الناس مصريون ولكنهم أشبه بالخواجات .. فهم لا يأكلون الا بالشوكة والسكينة .. تصور !! نسي الناس السنة فلم يعودوا يأكلون بأصابعهم ، ولا يصلون ولا يصومون ويستحمون مع النساء عراة في البحر ويرتكبون المساخر في العربات ، ويرطنون بلغة أجنبية .. حتى العربي نسيوه ..

لهذا السبب وحده تعم الأمراض والأزمات ويغزو الجوع بطون الناس ، وهو نفسه يحس أثر الأزمة ، وكذلك يحسها كل أقاربه في كفر غنام ..

ولكن !! ..

لماذا هو الغلبان الشقيان وأقاربه المساكين يعانون الازمة ، ولا يحس هؤلاء الفجرة بشيء ..

حكمة الهية !! ..

الله سبحانه يعذب الفقراء في الحياة الدنيا تكفيرا عن أخطاء الأغنياء ، ويعذب الأغنياء في الآخرة تكفيرا عن ذنوب الفقراء والحمد لله الذي كتب عليه أن يكون من أهل الآخرة ، فهي طويلة خالدة لا نهاية لها على الاطلاق ..

ولكن الشيطان أخزاه الله لابد أن يوسوس !! ..

وماذا يا عفيفي لو هبط عليك الحظ بعربة وامرأة ونقود

كثيرة فى البنوك ؟ ..

وأرعش الشيطان اللعين بدن عفيفى وأرعش كذلك عقله ..

نعم صحيح ، ماذا لو هبط الحظ عليك وأصبحت واحدا من هؤلاء الناس ؟ ..

طبعا أرفضها ، لا أركبها .. انها رجس من عمل الشيطان

ايه .. صحيح يا عبد الموجود ؟ ..

وترف ابتسامه باهتة على شفتى عبد الموجود وهو سارح مع أفكاره الى عالم بعيد ..

طيب لن أرفضها ، سأجرب يومين حياة هؤلاء الناس .. ثم أتركها وأعود كما كنت ..

أو .. أفضل على طول مع هؤلاء الناس لأحاول أن أمنع ما يدور بينهم من مهازل تغضب السماء ..

ياليها من فكرة رائعة يا عفيفى وتنزعه من جديد ضحكة عالية ، ولكنها فى هذه المرة صادرة من الرصيف المقابل .. ومصدرها شاب لابد أنه عابث يسير الى جوار شاب آخر فى مثل سنه ..

واغتاظ عفيفى جدا لأنه انتزع من حلمه الجميل .. وهذا الذى حدث مخالفة لأنه شغب من شأنه ايقاظ الناس النائمين

ولكن ليس هنا على الكوبرى أحد ينام ..

المهم أنه شغب والسلام .. ويخطو عفيفى بخطوات سريعة ويده فى حزام البندقية ، ويده الأخرى على شاربه ..

خذ يا فندى ، رايح فين ، وجاى منين ، وبتشتغل ايه .. وخناقة للجو ، وزعيق ، وشغب صحيح ، ثم ايمانات غليظة ، وجرجرة على القسم ، وظل عفيفى ملطوعا أكثر من ساعة فى القسم ثم أمروه أن يمضى الى عمله وترك الأفندية يضحكون أمام عينيه

مصيبة كبرى ان القانون لم يعد له وجود ، لو أن هناك عدلا حقيقيا لسجن هؤلاء الأفندية لهذا العبث المفضوح ..

ومضى عفيفى بخطوات متثـــاقلة على الطريق نحو كوبرى الجلاء ، ويده فى حزام البندقية ، ويده الاخرى تجاه فمه تقرض أسنانه من أصابعها أظافر حادة طويلة ، وعقله يحسب الشهور والأيام الباقية له فى خدمة بلوكات النظام ، وراح يستعرض فى ذهنه معالم كفر غنام .. ساقية عبد الهادى المهجورة ..

وطاحونة سوارس افندى ، وجنينة حسن افنـــدى ، والحتة الوسعاية ، وترعة الشرق ، والمصلية التى على حرفها ، ونفخ عفيفى بشدة من الضجر ، وبدت له ألوان الشارع باهتة .. وحجارته كالشوك ، والعربات التى تمر عليها شياطين متحركة

وعندما وصـل الى الـكوبرى ، كان الفجر على وشك أن ينبثق والهواء أصبح رطبا ، وسرى الخمول الى بدنه ، وتمنى لو ينام ، ولكنه ما كاد يخطو أول خطوة داخل الكوبرى حتى سمع صراخا كأنه الانين .. فأسرع بخطواته نحوه .. كان هناك حمار مكدود نائما على الأرض يحاول صاحبه المرهق عبثا أن يخلص من رقبته عريش العربة الكارو المحملة بالطوب كان الرجل يحاول بشدة ويأس معا .. انهاض الحمار الذى سقط فى الطريق ..

وعندما شعر الرجل بالعسكرى عفيفى ، ناداه على الفور ، وطلب منه ببساطة أن يعاونه ، واشمأز عفيفى أول الأمر ، ولكن لهجة الرجل كانت فيها ريفية بسيطة متسـخة ممزقة انه واحد من الناس وملامحه طيبة ، وملابسه زرقاء يشبه كثيرا الناس الذين فى كفر غنام ، والناس الذين فى القرى التى حولها ، وتحرك عفيفى على الفور ، أسند البندقية الى عامود النور ، وانحنى على العريش المعلق فى رقبة الحمار .. وثنى ركبتيه وهتف الاثنان معا فى صوت منغم رتيب :

صلى على النبى ..

ونهض الحمار ، ونهض عفيفى فنفض كفيه وبنطلونه .. والتقط بندقيته ، واتجه بخطوات ثابتة الى مكانه تحت العامود وقبل أن يقف زنهارا نظر الى ساعته الجيب الضخمة ليرى كم من الوقت بقى على انتهاء داوريته ؟ ..

أبو دراع ..



مد عبد الرحيم أبو دراع أنفه من نافذة القطار السريع الذى راح منذ ثلاث ساعات مضت يخطف القرى والمدن والحقول خطفا منذ أن قام من بنها والحقول الى الاسكندرية ..

وكان السبب الذى من أجله مد عبد الرحيم أبو دراع أنفه من النافذة هو نسمة هواء لطيفة هبت فجأة فلطفت جو القطار الذى كان يعبق برائحة العرق والبول والدخان الذى كان يتسرب من دورة مياه العربة الأخـــيرة ، ويجرى فى قنوات رفيعة طويلة تحت أقدام الركاب ..

وتنشق أبو دراع الهواء فى حركات سريعة ، وقد مد أنفه بقدر ما يستطيع ثم أغمض عينيه من اللذة ، وتمنى لو كان له بيت فى هذا الخلاء الفسيح فيتمدد على حصيرة أمام الباب ، ووسادة من تحت راسه ونسمة هواء لطيفة مثل هذه تهب عليه فتجعله ينام ..

وقطعت أحلام أبو دراع ضجة هائلة قامت من حوله .. فقد تأهب الركاب للنزول فى محطة الاسكندرية ، وأسرع كل منهم نحو الباب يحمل شنطة وأمتعة ..

ووقف هو فى نهاية الصف الطويل بلا شنطة ولا أمتعة .. يمطى فى خمول ، ويتثاءب فى ملل .. وعندما وقف القطار نزل معهم وسار بينهم حتى وجد نفسه خارج المحطة فى الميدان الواسع الكبير لا يعرف فى أى اتجاه يجب أن يسير ، فهـــذه هى المرة الأولى له فى الاسكندرية ، ولولا المسالة المهمة التى جاء من أجلها لما فكر فى السفر الى هنـــا ، فهو أولا لا يحب السفر ، ورأيه فيه أنه تنقلات بلا مبرر ، فالمدن والنـــاس يتشابهون فى كل مكان وأيضا لأنه لا يجد الوقت الكافى ولا يجد نقودا ، وحرش أبو دراع فى قفاه وهو ينظر حوله مندهشا لما يراه .. فأمامه ميدان وأرصـــفه وناس كثيرون لا يختلفون عن الناس فى مصر لا فى بنها .. والمبانى واحدة ليس فيها شىء عجيب ولا غريب .. ومع ذلك فمـــا الضخم الشهرة التى تتمتع بها الاسكندرية ، والصيت ولا الغنى كما يقولون .. وتذكر أبو دراع فى تلك اللحظة الصور العديدة التى مرت فى ذهنه عندما كان يسمع اسم الاسكندرية ، وكان يظن فى تلك الأيام أن شوارعها من البللور ، ومبانيها من الفضة ، وناسها حمر الوجوه كالانجليز ..

وسرعان ما طرد أبو دراع هذه الخواطر عن ذهنه ، واتجه ناحية عسكرى المرور يسأله عن شاطىء كليوباطرة حيث يعمل ابن عمه حارسا للشاطىء هناك ..

كان الميدان مزدحما والعربات تجرى على الطريق تحمل رجالا ونساء أنصاف عرايا ، وأحيانا عرايا الا من لباس ملون صغير ، وكان العسكرى مشغولا فأشـــار بحركة خاطفة الى الطريق الذى يجب أن يســـلكه ، وبسرعة وبدون أن يفهم أبو دراع شيئا شكر العسكرى ، وانحرف ناحية الطريق الذى أشار اليه العسكرى وراح يحث الخطى مسرعا وهو مستغرق تماما عن كل ما حوله فى المسألة المهمة التى جاء من أجلها الى الاسكندرية ، وأيضا فى المصـــاريف التى تـــكبدها والتى سيتكبدها حتى يعود من جديد الى بنها ..

وتمنى لو استطاع أن يحل المسألة بسهولة من ابن عمه ، فهو يعلم انه شهم وانه جدع ، ومسألته لا تحتاج الى تفكير طويل ، فهو يرغب فى الزواج من بنت عمه ، فهى صغيرة ..

وجميلة .. ومن دمه .. وهى تحبه وهو يحبها .. ولكن العقبة الوحيدة التى تعترض طريق سعادته هى أنه يملك عشرين جنيها فقط وأبوها تصر على ثلاثين ولو كان أبو دراع يملك ثلاثين أو خمسين أو حتى مائة لدفعها كلها ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك الا العشرين ، وحتى هذه العشرين فقد عينه الشمال فى سبيل جمعها .. فهو منذ أن غادر قريته كفر جروان وهو يعمل عامل بياض فى بنهـا ، يطلى الحيطان بالجير ويزخرفها بالألوان ، وهى شغلة عظيمة وفنية لولا قطرات من هذا السائل الكاوى تتطاير أحيانا من الفرشاة فتؤذى العيون وتأكلها ، وقد أكلت الشغلة عينه الشمال ، ولكن ماذا يهم ؟ وقد بقيت له عينه اليمين ، والحياة شقاء وقد خلقت للجدعان وهو جدع يكسب وينفق ما يكسبه ، ويعيش عيشة أفضل بكثير من التى يعيشها أقرانه فى قريته كفر جروان ..

واستيقظ أبو دراع على صوت عربة تكاد تدوسه ، وأفاق من أحلامه وهو لا يدرى الى أى مدى استطاع أن يسير فى الاتجاه الصحيح ..

وكان قد سار أكثر من ساعة فى شوارع طويلة متعرجة ملتفة حول نفسها كأنها ثعابين ، وسب عبد الرحيم الدين والدنيا عندما اكتشف انه عاد الى الميدان الكبير الذى بدأ منه رحلته ، وكأنه كان يسير فى بيت جحا بلا معالم ولا نهاية وفكر فى أن يسأل عسكرى المرور ، ولكن شجاعته خانته ، فسأل رجلا كان يسير الى جواره فدله على الطريق وسار أبو دراع من جديد حتى وصل الى البحر ..

ودقق أبو دراع النظر فى الأفق البعيد لعله يرى بلاد بره ولكنه لم ير شيئا سوى البحر والسماء تكاد تنطبق عليه .. وراح يتمشى على الشاطىء وهو يسأل كل من يلقاه عن ابن عمه حتى وصل اليه ..

وجلس الرجلان على الرمال يشربان الشاى ، وحسن يسأل أسئلة مختلفة عن الناس فى القرية وفى بنها وعن المعايش والأرزاق ..

وأبو دراع يجيب اجابات مفيدة ومختصرة ، ورأسه الحليق

الصغير يدور خلال هذا كله فى كل اتجاه .. الى الناس الذين يعومون فى الماء ..

ولكن الموضوع الذى جاء من أجله كان يلح عليه ، وكان يتحين الفرصة ليتحدث فيه ، وجاءته الفرصة عندما سأله حسن عن السبب الذى من أجله قادته قدماه الى الاسكندرية وشرح أبو دراع المسألة فى بساطة ، ثم امسك بقطعة خشب طويلة وراح يرسم على الرمال أشكالا مختلفة والدقائق تمر عليه ثقيلة تأكل أعصابه القلقة فى انتظار رد حسن ، وقبل أن يرد حسن سمعت ضجة عند الشاطىء وخلق كثيرون ينادون على حسن ، وقام حسن بسرعة وألقى بنفسه فى الماء وراح يسبح بشدة الى الغريق الذى كان يغالب الموج على مسافة بعيدة من الشاطىء ..

ولم يهتم أبو دراع للمسألة .. فحوادث كثيرة من هذا النوع تقع عند شاطىء الترعة فى قريته وعند حرف البحر فى بنها ، ولكن هناك لا يهتم أحد بالغرقى وأحيانا رجال ذوو شهامة يلقون بأنفسهم فى الماء لانتشال الغرقى ، ولكن خلال الفيضان لا يجرؤ انسان على النزول الى الماء ، ولو كان الغريق أقرب المقربين اليه ..

ودار رأس أبو دراع الى ما حوله ، الى البيض السمينات العاريات على الشاطىء وفى داخل الماء .. الى الرجال المترفين المرفهين الذين يكاد الدم يتفجر فى عروقهم من الصحة .. الى الألوان الزرقاء والحمراء والخضراء التى طليت بها مظلات الشاطىء ، وأخذته روعة المنظر الجميل وسلبت عقله ، وتمنى لو يخلع الجلباب القذر الذى على جسده الهزيل ، وأزاح ذيل جلبابه فكشف عن سروال طويل الى ما تحت الركبتين ، وتمنى لو يقذف بالسروال الى البحر ، ويلبس غيره من النوع الملون القصير وينزل الى الماء فيعوم .. انه يعوم أحسن من بعض الذين فى الماء ، وهو عندما كان صغيرا كان يعبر البحر عند قريته ، ولكن لم يكن له لباس ملون صغير وجميل مثل الأطفال الذين يراهم الآن ..

وكانت أياما سعيدة مرت سريعا ، رغم انها أصابته بمرض

الفوت ، والذى لا يزال يستنزف دمه كله .. ولكن العوم فى المالح جميل ، وليس فى المالح دود ..

وقطع عليه جبل تفكيره سؤال عنيد ثار فى رأســه فجأة وتحداه :

ـ وكيف تربح بعد ذلك يا أبو دراع ؟ ..

وأجاب أبو دراع على نفسه والحسرة تملأ نفسه :

ـ صحيح ، وكيف تربح يا أبو دراع ؟ ..

وغاب بوعيه عن الشاطىء وعن الجميلات وعن العشة ، وعن الفراخ وراح يفكر فى هذا السؤال الذى ثار فى عقله وتحداه فالنوم على حرف البحر والاستحمام فى الماء ، وشـــغل الجميلات لن يترك له وقتا للربح ، ولا للعمل فى شغل البياض وهو لا يستطيع أن يهدأ لحظة ليلتقط أنفاسه ..

انه فى حاجة دائما الى العمل ليأكل ومن الذراع الى الفم كما يقولون وهو يأكل يوما بيوم ، وأحيانا يمرض فلا يستطيع أن يرتاح ، وأحيانا عموده الفقرى يئن عليه ويؤرقه ويود فى تلك اللحظات العصيبة أن يستريح ولكنه لم يجرؤ أبدا .. لأن الراحة معناها الموت ، لأن معناها عدم الأكل ..

وهؤلاء الناس الذين حوله يرتاحون كثيرا ولا يخافون شيئا لابد أنهم لا يعملون . وان الأكل متوفر عندهم بحيث لم يعد أحدا منهم يفكر فيه ، ولابد عندهم عمارات وأطيان ، وعندهم خدم وحشم وأولادهم فى المدارس وعقولهم ليست مشغولة بشىء على الاطلاق ..

وشـــعر أبو دراع بعموده الفقرى يؤلمه ، فراح يتحسسه بأصابعه الخمسة فى مهل ، ورنت ضحكة الى جواره فنظر فى اتجاهها ، فشاهد شابا وفتاة يتغامزان عليه ويتضاحكان ..

وخطر لأبو دراع أن يكون الفتى والفتاة قد ظنا انه يهرش فى ظهره .. فارتعش بدنه وراح يتحسس ظهره من جديد وهو يتصنع بتسمات وجهه الألم الشديد ، حتى يعرف الفتى والفتاة انه يفعل هذا من الألم لا للهرش ..

وجاء ابن عمه بعد قليل ، فسأله عن الغريق فأجاب بأنها حالة سليمة ..

وبعد فترة صمت قصيرة هتف أبو دراع يستفسر ابن عمه رأيه فى مسألة زواجه من أخته . وبان عدم الاكتراث على وجهه وكأن المسألة لا تعنيه ، ثم أخذ يشرح الظروف المختلفة ، وكيف انه أصبح بعيدا عن أمه وأخته وان كلا منهم مشغول بحاله ..

وفهم أبو دراع فى النهاية ، أن ابن عمه لا يســـتطيع حل المشكلة وان الامر كله فى يد حمـــاته ، فلعن الشيطان الذى وسوس له بالسفر الى الاسكندرية ، ونهض بعد قليل فصافح ابن عمه فى غير حماس وصعد السلالم على مهل الى الشـــارع العريض ، وراح يتمشى الى جوار السور محـــدقا النظر فى الشاطىء وفى البحر الواسع العظيم وبدت له الفتيات فى هذه المرة من بعيد كأنهن حمامات فى ألوان مختلفة وتســاءل فى حيرة شديدة ، ترى كم تساوى الحمامة من هذا النوع .. وبنت عمه حميدة تصر أمها على ثلاثين جنيها .. لابد أن الواحـــدة منهن تساوى ألفا ، وربما مليونا .. وبلع أبو دراع ريقه ، وهرش فى قفاه ، وألقى نظرة أخيرة آسفة على الرمال وعـــلى البحر وعلى الرجال والنســـاء الذين يمرحون فى الماء وفوق الشاطىء ، ثم استدار ناحية الشارع وعبره وثبا ، وراح يسأل كل من يلقاه عن محطة السكك الحديد ..

غيط القصب ..



يا وكستك يا حمدان بعد هذا العمر الطويل تطلع حرامى وتدخل اللومان ويموت أولادك من الجوع فى كفر الغنايم .. وانت طول عمرك شريف تضع على رأسك لبدة ، وعلى صدرك نمرة ، وعلى كتفك بندقية تحرس بها غيط القصب للشركة . ولك مرتب ثابت كالمستوظفين وأنت طول عمرك قانع يا حمدان بالجنيهات الثلاثة كل شهر ، تدفع اثنين منهم للعيال فى كفر الغنايم ، وتصرف انت واحد طول الشهر تأكل وتنام وتلبس وتشرب الشاى وأحيانا تدخن السجاير الممتاز ، والجنيه صحيح لا يكفيك ، والأمراض تنهش جسمك والروماتزم ينشر عظمك وأصابع قدميك تطل من بوز الجزمة ، والعقارب تسرح حولك فى الجحر الذى تأوى اليه والشقوق التى تمزق يديك تقيحت والخيبة تحط عليك من كل مكان ..

وقطع على حمدان تفكيره غلام جاء يعدو من بعيد ، ويزعق بصوت كريه وكأنه غراب :

- قز يا حمدان كلم لفندى فى الشركة ..

وزام حمدان كأسد أسير ولم يتكلم ، وأعاد الولد نداءه ، ثم استدار وراح قافزا مثلما جاء ، وقضم حمدان ابهامه ، ثم نكش شعر شاربيه المنفوش ، وعاد يفكر فى الوكسة العريضة التى أصابته آخر الزمان .. فلابد أنها ساعة نحس تلك التى رآه فيها الافندى معاون الشركة وهو يبيع حزمة القصب بقرشين والافندى المعاون مؤذى لا يرحم أمه ، وسيطرده حتما وربما قدمه للمركز مقبوضا عليه ، والمركز يسمع كلام الشركة ..

وتبارك أزرق يا حمدان لو سجنوك .. فمرة قبل الآن ضبطوه وهو يسرق القصب .. ويومها سلموه للمركز .. وضربه العساكر بالكفوف والقوايش .. وبات أربعة أيام على الأسفلت ثم أطلقوه حرا بلا تهمة ولا عمل .. لأنهم في الشركة استغنوا عن خدماته .. وليس يعقل أن تقبل الشركة بين خفرائها لصوص من عينة حمدان .. ولكن حمدان ليس لصا ، وهو لا يصدق أبدا أن الشركة تفصله من أجل حزمة قصب يضيع مثلها عشر مرات فى كل ساعة ، طعاما للذباب ، والفلاحين الذين يعبرون الطريق ، واللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب والشركة لن يلحقها الخراب من أجل حزمة قصب يبيعها حمدان لابد أنها عين أصابته من العاطلين المطلوعين على جانبى السكك فى كفر الغنايم ، وحفيت أقدام حمدان عند الشيخ ، وعند النائب ، وقبل رجل الضابط ، وانحنى على يد الشاويش ..

ونام أياما عند بيت المعاون .. ثم قبلت الشركة أن يعود الى عمله على شرط الا تمتد يده الى عود واحد من القصب .. ورضى حمدان بشرط الشركة .. وهو على يقين بأن يده ستمتد دائما الى غيط القصب ينتزع منه عيدانا يمصها وأخرى يبيعها ويحصل على ثمن الدخان ، وغيط الشركة مثل بحر المالح ليس له بوز ..

وعاد حمدان الى غيط القصب يحرســه ، والتجربة التى خاضها قد غمرت نفسه بأحاسيس جديدة ، وحركت برأسه أسئلة كثيرة لم تكن تطوف به من قبل لماذا تكره الشركة السرقة عندما تكون من جانب حمدان ، مع أن الشركة تسكت على سرقات على نطاق أوسع تقع من جانب اللصوص يعيشون داخل القصب ، والشركة تعرف هؤلاء واحدا واحدا ، وتدفع لكل منهم أجرا كبيرا يوازى أجر المدير ، وتحترمهم أيضا وتتركهم ينتزعون محصول فدادين كثيرة والشركة تبدو راضية كل الرضى .. بل انها فى أحيان كثيرة تأمر بتعيين أنفار لا حاجة اليهم لأن هؤلاء اللصوص أشاروا بتعيينهم وهو يعرف هؤلاء اللصوص جيدا ، فهم ينزلون ليالى كثيرة عليه ويقضون ساعات الليل معه ، يشربون الشاى ويتحدثون أحاديث فاجرة .. ويشتمون المدير والمعاون ويتحدثون عن الضابط حديثـا

صريحا وكأنهم لا يخشونه ، ، ومن خلال تلك الأحاديث فهم حمدان انهم على علاقة وثيقة بالشيخ وبالنائب ، وانهم أحيانا ينزلون ضيوفا عليهم وعلى الاعيان يأكلون ويسمرون وكأنهم معهم فى نفس المنزلة ..

وتوقف حمدان عن السرحان فقد ناداه خفير آخر من عند باب الشركة بصوت مرتفع ..

ـ يا حمدان كلم لفندى المعاون عاوزك ورد حمدان بصوت أعلى :

ـ طيب ، يعنى عوه مستعجل جوى ع الشر ..

واستدار الخفير الآخر ومضى داخل الشركة ، وعندما غاب عن ناظريه عاد يفكر وهو يتساءل فى دهشــة عن السر الذى يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص الذين يعيشــون داخل غيط القصب انهم ليسوا أقوى منه جســدا ، بل هو أقوى من بعضهم ! طوله مفرط ، وقلبه ميت لايخشى الأســد ومعه بندقية من نفس النوع الذى يحملونه ، ولكن هو عار ، وهم فى أبهى حلة ، الجلاليب الصوف والجوخ فى الشــتاء ، ومن تحتها القفاطين الشاهى والجزم الطويلة فى أقدامهم ومن تحتها الشرابات الصــوف ، والكتاين الذهب تتدلى عن جيوبهم وفى الصيف يلبسون الحرير الطبيعى والفانلات المشــغولة بالابرة والصنادل التى تكشف عن الأصابع والكعبين ، وهو متلس دائما ، وهم دائما فى يسر ، محافظهم منتفخة ، وسجائرهم من نفس النوع الذى يدخنه الضــابط واللفندى المعاون ، وهو يشرب السجاير الفرط ، ولايجدها بسهولة فيمد يده الى غيط القصب ليعبث عصافير رأسه التى تهرب منه وتطير .

ســؤال غريب ، احتار حمدان فى البحث عن جوابه .. ماذا يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص حتى أنهم يرتعون فى النعمة ، ويشرب هو كل مافى الوجود من ذل وهوان يرعبه الضابط ، ويبعد النوم عن عينيه أفندى مفعوص مثل المعاون انه أقوى من بعضهم والسلاح الذى معه مثل السلاح الذى معهم ولكنه يمتاز عنهم بأشياء كثيرة هى انه يستطيع المشى أمام مركز البوليس فى أى وقت يشاء وهم لايستطيعون ..

وشيخ البلد يسأل عنه أحيانا ، ولا يسأل أبدا عن هؤلاء المطاريد والنائب زاره مرة فى بيته وجلس معه فوق الفرن وشرب معه الشاى وعامله بمودة ويوم الانتخابات ذهب ومعه تذكرة التى بها فى صندوق . والآخرين لايستطيعون أن يذهبوا فليس لهم تذاكر ، وليس لهم عند الحكومة وجود .
[illegible]
منها الاحتقار ، ولهم منها العطاء . أحوال مقلوبة مثل كل شئ فى الوجود ، ويبدو أنها ستظل مقلوبة ، ولا سبيل الى اصلاحها على الاطلاق . ولو أن هناك عدلا لمنحته الشركة العلاوة التى طلبها منذ عام ، اذا لما سرق ، ولما وقف هذا الموقف الذى لايدرى كيف يواجهه . فقد فات الأوان ، واقشعر بدن حمدان كله وهو يتخيل نفسه فى الحديد ، وصفا من الجنود يحرسه ، ثم المحاكمة والسجن ومصير أسرته فى كفر الغنايم وكلام الناس عليه . وأطفاله كلهم صغار ليس فيهم من يستطيع أن يعول العائلة وكفر الغنايم كله سوف يشمت فيه . وسيهون أسرته وتذل ، وستخدم الذى يسوى والذى لايساوى شيئا فى سوق الرجال . وهو نفسه بعد أن يخرج من السجن ويعود الى كفر الغنايم ، ماذا يفعل وهو لم يكن يجد عملا فى الحقول قبل أن يعمل فى الشركة . انه سيبقى منطوعا على جدار المضيفة يدور مع الشمس اينما تدور .

ولو أنه لم يسرق القصب فى تلك الساعة المهيبة التى كان المعاون يمر فيها على الحفراء لما حدث من هذا شيء ولكن ، الله يخرب بيته محمد أفندى المدرس الالزامى هو الذى أصر على شراء حزمة القصب فى تلك الساعة لأن أولاده مغرمون بمص القصب فى النهار وهو طول عمره يسرق القصب ويبيعه فى الليل ، ولكن هكذا أراد له القدر ومحمد أفندى وأولاده المغرمون بمص القصب فى النهار أسباب ليس الا وليس أمامك ياحمدان الا التسليم بارادة الله .

ونفخ حمدان وهو ينتزع بأصابعه من جيبه الداخلى سيجارة يشعلها عليها تهدىء أعصابه ، وتضغط بدخانها على الثورة التى تجيش بنفسه ، ولو كانت العسكرية قبلته لاستراح من هذا كله ، ولكنه لسوء البخت ـ أقرع ـ والعسكرية لا تأخذ القرع

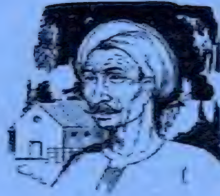
وفى عينيه الشمال سحابة أصابه بها مرض لايدرى عنه شيئا أفقده نور عينيه وهو طفل صغير .

وأشعل حمدان السيجارة ، وجذب منها أنفاسا عميقة . وراح ينظر بعين نافذة الى غيط القصب الذى يترامى أمامه عريضا مثل البحر المالح ليس له بر . وفى داخله تسكن أسود أسرة من البنى آدم تحتقر المدير والمعاون ، ولا تخشى الضابط ولا تعمل حسابا للخفراء وتلبس الصوف فى الشتاء والحرير فى الصيف وجيوبها عامرة بالمال ، وسجائرها فاخرة النوع ، أنها من الشركة مرتب الخواجه المدير ، ومصمص حمدان شفتيه وبدت على وجهه ابتسامة أرعشت معالمه كلها .

وجاءه نداء مرتفع من الخلف يطلب اليه أن يسرع فى مقابلة المعاون . ولكن حمدان لم يسمع النداء ولم يهتم به ، فقد تحسس سلاحه ونهض على قدميه ، واخترق هذا السياج الذى يفصل بينه وبين الاسود الكواسر التى تسكن الغيط وانفرجت أعواد القصب وتهشمت تحت أقدامه أعواد ما لبثت الا عادت وتآلفت ، وغاب حمدان من خلفها عن الانظار . وغدا سوف يصبح حمدان واحدا من الاسود الكاسرين .

الريس عواد ..

كانت الحركة على أشدها داخل معسكر فايد الكبير والجنود الحمر الوجوه يذهبون ويجيئون فى طوابير منظمة وكأنهم جيش من النمل يزحف على أرض مبتلة . والعرق يتصبب من جباه الجنود بغزارة ويتدفق على عيونهم فيؤذيها ، وعلى ملابسهم فيبللها ويكسبها لونا غريبا شبيها بلون المياه الآسنة .



وحول أسوار المعسكر الشائكة كانت هناك عدة طوابير من عربات اللورى الضخمة فى انتظار شحن الجنود والمهمات لنقلها الى الميناء ليأخذ الجميع طريقهم عبر البحر الى بلاد بعيدة ورغم أن الجو كان حارا ثقيلا يكتم الأنفاس ، وشمس يولية القوية تتوسط الأفق باعثة حرارتها القاسية فى رمال المعسكر الا أن الجنود الصغار ذوى الوجوه الحمر كانوا يبدون أكثر سعادة وأشد بهجة من أى وقت مضى وكانت أصواتهم الخشنة الواهنة بفعل الحرارة الخانقة ترتفع بين الحين والحين بأغنيات قصيرة جميلة لاتخفى فرحتهم بمغادرة هذا المكان الكئيب وسط صحراء فايد القاحلة .

وعند باب المعسكر كان هناك بعض الصعايدة الأشداء يساعدون فى نقل الأمتعة الى العربات ، وبعض رجال البوليس الحربى يشرفون على عملية الشحن ويلقون ببعض التعليمات . وعلى الجهة الأخرى من الطريق كان الريس عواد يجلس أمام العشة التى يملكها والتى يأوى اليها الرجال الذين يعملون عند الانجليز فى الظل يشربون الشاى ويدخنون كراسى المعسل بالحشيش متربعا على الرمال وعصاه الضخمة التى يعتز بهـا والتى لاتفارق يده أبدا ملقاة أمامه وقد دفن جزء منهـا فى الرمل

وعيناه الحادتين كعينى صقر تحدق فى باب المعسكر وفى الجنود الذين يذهبون ويجيئون وأصواتهم تتعلع بالغناء .

ومنذ أكثر من خمس ساعات وهو جالس كالتمثال صامتا ملامحه يشهد عمليات الجلاء عن معسكر فايد الكبير . وأحيانا كان يقطع صمته عليه مرور عربة تحمل بعض الجنود فيضطر الى رفع يده المعروقة التى غطاها الشعر يرد عليهم تحيتهم ثم يعود الى صمته من جديد ، وكانت تحيته ـ رغم برودة صمته ـ تحمل حرارة شديدة نحو هؤلاء الجنود الصغار الذين عاش معهم طويلا ولن يقدر لهم أن يراهم بعد الآن جون وجونى وجورج ودجبى ، وهذا الضئيل الأشقر المغرور دائما كفأر سيبس الصغير . انه يعرف هؤلاء الجنود جيدا ، ويعرف غيرهم كثيرين . فهو يعمل مع الانجليز منذ خمسة عشر عاما . عمل معهم فى بداية الحرب ، فى طبرق وفى العلمين وفى ليبيا . وشهد انسحابهم الطويل وشهد انتصارهم أيضا . وتعلم لغتهم ، وبعض عاداتهم . وفضيلة الصمت التى يتميز بها الآن يرجع الفضل فيها اليهم .. فقد كان الريس عواد قبل ذلك شغوفا بالكلام .

وتذكر الريس عواد الصاحب رايلى ، والأيام العصيبة القاسية التى عاشها معه فى سيدى برانى ، وكان يحلو له أن يذق الناس . الجنود والأنفار الصعايدة والأسرى الطليان . ولكنه فى المساء كان ينقلب حملا وديعا ، يشرب كثيرا ويغنى ويرقص ويهذى بكلام غير مفهوم .

ومضت عربة مسرعة أمام الريس عواد وأثارت عاصفة من الرمال . ورفع الجنود الذين بداخلها أيديهم بالتحية ورفع الريس عواد يده هو الآخر فى حماس ، ثم عاد الهدوء يلف المكان من جديد ، وعاد الريس عواد الى ذكرياته مع الصاحب رايلى فى سيدى برانى ، وفى بير حكيم . ولكنه فى بير حكيم لم يكن صاحبا وقتئذ . كان مثله أسيرا فى معسكر يضم مئات من أمثاله ، وبعض الصعايدة الذين عثر عليهم الطليان داخل المدينة مع الانجليز وكأنما كتب على رايلى أن يشرب من نفس الكأس الذى سقاها للآخرين . فقد كان وحده دون الأسرى جميعا مشاكسـا عنيفا ، وكان الطليان يعذبونه كثيرا

وساءت صحته وانهارت أعصابه · ثم مضت عليه فترة طويلة وهو صامت في ذهول · ثم عاد إنسانا ككل الناس ، هادئا مطيعا ، يقضى أغلب أوقاته مع الريس عواد وهو يقلب أمام عينيه صورة لزوجته مع ولده الوحيد ·· واستطاع أن يعرف أسرارا كثيرة واستطاع كذلك أن يحبه ، وكان من قبل يكرهه ويتمنى لو يموت ، كان الصاجن رايلى مغرما باصدار الأوامر · يصدر أمرا بالحفر وأمرا بالحرب ، وأمرا بالسير الى أمام ، ثم أمر بالارتداد الى الخلف ولكنه فى الأسر علم أن رايلى غير ذى سلطان وأن هناك رجالا عجائز يحملون النياشين ويعيشون كالآلهة ويلفون حول قبعاتهم شرائط حمراء فاقعة اللون هم الذين يصدرون الأوامر ويديرون الحرب ولا أحد يصيب أحدهم على الاطلاق · ودهش الريس عوادليفه الأسرار الذى اكتشفها خلال الأسر ·ودهش أكثر لأنه لم يسبق له رؤية واحد ن هؤلاء العجائز الكبار · وكان من قبل يظن أن رايلى هو الذى يأمر وهو الذى يشخط وهو الذى يدير الحرب كما يشاء ·· لذلك كان يبغضه ·· أما الآن فقد فتح الريس عواد قلبه للصاجن الرايلى ·· أحس أنه مثله ، يتحرك هو الآخر كما يريد السادة الكبار · يقتل ويسلب ويموت ·· والهدف لقمة العيش

ومضت عربة أخرى أمام الريس عواد ، ورفع الجنود عقيرتهم بالصياح وأيديهم بالتحية ، ولم يلحظ الريس شيئا من هذا كله كان مشغولا عنها بذكرياته فى بير حكيم مع الصاجن رايلى ، فى تلك الليلة المشئومة يوم رحل التيقود من المعسكر بعد زيارة طويلة ، ورحل معه كثير من الأسرى الانجليز ومنهم الصاجن رايلى ، ودفنوه فى الصباح فى حفرة كئيبة حول أسوار المعسكر ··

وانقطعت أفكار الريس عواد فجأة عندما شاهد علبة سجائر ضخمة تتدحرج أمامه على الرمال ، ألقى بها جندى سعيد هدية للريس العجوز · وقام من مكانه وثبا كالقنفذ فالتقطها بسرعة ثم مسحها بجلبابه وأخفاها فى جيبه · ورفع كلتا يديه بالتحية لجنود العربة التى كانت قد انحرفت ناحية اليمين وغابت عن الأنظار

وراح الريس عواد يدلك ساقه المريضة فى حنان ويضغط

باصابع يده الخشنة على ركبته متحسسا الكسر القديم من أثر الشظية التى أصابته فى ليبيا وتذكر تلك الأيام التى قضاها فى المستشفى لا يتحرك ، وساقه معلقة فى السرير وكان المستشفى نظيفا والستات الذين يخدمونه فيه انجليز وطيبين ·· لا يضربون أحدا ولا يزعقون فى وجه أحد حتى انه تمنى لفترة ما أن يتزوج احداهن ، ولو كان هذا قد تم ، اذن لعاد الريس عواد الى شبابه المفقود !!

وتذكر كيف عاد بعد ذلك الى مصر ، فقد كسب الانجليز الحرب وفصلوه ، وكان النصر مفاجأة له · وكان لا يتمناه ، فهو يعتمد على العمل ريس أنفار مع الجيش ، وكان يعتقد أن الحرب ستستمر الى الأبد وكان متفائلا على الدوام · حتى بعد أن دخل الانجليز ألمانيا · فقد كان يعلم تماما أن هتلر سيفتح المخزن ١٣ · وأن الحرب ستعود من جديد ، ولكنه علم عن الجرائد بعد ذلك أنهم قتلوا هتلر قبل أن يتمكن من فتح المخزن · كما أن المخزن اختفى بعد النصر · لابد أن هتلر أخفاه فى مكان ما فى الجبل · وحكاية قتل هتلر لا يمكن أن تدخل عقله فهو يقينا اختفى هو الآخر ، ولن يلبث طويلا حتى يعود · وعاش الريس سنوات طويلة على هذا الأمل · ولكنه كان أملا كاذبا لم يتحقق · والنقود التى كسبها من الانجليز أخذت تتبخر من بين أصابعه ، وكان لزاما عليه أن يجد عملا ليعيش · ولكنه لا يجيد شيئا سوى هيئة توحى بالاحترام · وهو لا يقبل عملا أقل من ريس أنفار · كفاه ما لقيه من بهدلة أيام أن كان يسرح بالقصب والموز فى شوارع القاهرة ، أو يعزق الأرض فى قريته نزالى جنوب · وهو الآن يرطن بلغات شتى · وعنده قدرة عجيبة على العمل وجلد شديد · ولكن أحدا لا يريد استخدام هذه المواهب الضخمة التى فيه ··

وهكذا عاد الريس عواد الى قريته فى أعماق الصعيد · بعد فترة غياب طويلة امتدت عشرة سنين · ولم يكن فيها من يهمه أمره · سوى أخت شقيقة متزوجة من بائع سريح · وأخ شقيق كان صغيرا عندما غادر الريس عواد القرية ولكنه كبر الآن وأصبح رجلا ، والرزق فى القرية محدود ، فجذبه من يده

وجاء به الى مصر ، ولم يكن بها عمل ، فشدا رحاليهما الى القنال الى المعسكرات التى تاق لرؤيتها الريس عواد . الى الجنود السكارى الصائحين .. الى الحياة الشاقة الجميلة داخل الصحراء . ولكنه لم يجد عملا فى القنال . يبدو ان الفقر لحق الانجليز أيضا . وكانوا خلال الحرب من أغنى الأغنياء . ولكن اليأس لم يتطرق الى قلبه أبدا ، فالحيلة لا تنقصه ليعمل .. وهو الذى خاض الحرب وجاب أقطار الأرض جميعا . وفى المعسكرات خير كثير . وهو فى حاجة الى شىء منها ولن تقف عقبة فى طريقه ، لا الأسلاك الشائكة ، ولا الكلاب المسعورة ، ولا الحراس بمدافعهم الرشاشة ..

وهكذا وجد الريس عملا وكذلك أخوه . ان الانجليز مازالوا أغنياء . يملكون مخازن مشحونة مهما أخذ الانسان منها فانها لا تنقص . وهو لا يدرى لماذا الانجليز وحدهم الأغنياء . والمصريون والافريكان السود فقراء ؟ لابد أنه نظام الله ، والدنيا لا تستقيم — كما يقول الشيخ سعفان — الا اذا عاش بعض الناس جوعا ، وعاش بعضهم فى نعيم مقيم . فهناك شحات ، وهناك غنى ، وهناك ملك ، وهناك غفير ..

ومضت من جديد عربة على الطريق . والجنود الذين بداخلها يغنون ويرقصون . ولم يلتفت واحد منهم الى الريس عواد وهو يرفع لهم يده بالتحية فعاد الى تفكيره ، يذكر الأيام الطويلة التى قضاها فى فايد يقتحم المعسكرات ، ويخطف كل شىء . ثم انطلقت رصاصات غادرة ذات ليلة فى الظلام فقتلت أخاه منصور .. الرجل الزين ولا كل الرجال .

وبان الغم الشديد على وجهه ، وتقلصت عضلاته وهو يضغط على أسنانه بشدة وكأنه يطحن تحتها جسما صلبا .

انه يذكر تلك الليلة جيدا ، وفى داخل المعسكر الذى يبدو أمامه . وكان منصور الى جواره عندما انطلقت الرصاصات تمزق سكون الليل . وسمع صراخه ورأى بعينيه فى ضوء القمر الشاحب دما غزيرا يتدفق على الرمال ، وسمعه يستغيث . ولكنه لم يجرؤ أبدا على أن يغيثه ، فقد كانت الرصاصات تطيش من حوله مجنونة كأنها السيل المنهمر ، ولم يره بعد ذلك الا بأيام جثة هامدة أحدثت بها الرصاصات

ثقوبا كأنها غربال ..

ولم ير الريس عواد النوم بعد ذلك ، كان لابد من الانتقام . وقتل جندى واثنين وثلاثة .. وكان ينوى أن يقتلهم جميعا .. هؤلاء الكلاب ..

ومرت عربة من أمامه تحمل فوجا جديدا من الجنود فى طريقهم الى الميناء وعندما رفعوا أيديهم بالتحية لم يرد عليهم ، كانت نظرته اليهم تحمل كثيرا من المعانى ، وتحكى كثيرا من الأمور ..

وعاد يذكر تلك الأيام العصيبة التى مرت عليه ، والقلق ينهش أعصابه ، والندم يأكل نفسه ، لابد من قتل الجنود جميعا والا فانه لن يرى النوم بعد ذلك ، وراح الريس عواد يذكر تلك الليلة التى أطلق فيها النار على جندى الحراسة محاولا قتله . وكيف سقط الجندى على الأرض وهو يصرخ صرخات مجنونة مزقت السكون ، وانطلقت بعدها الأنوار الكشافة كذئاب تبحث عن فريسة ضالة . وقبع هو مكانه فى الحفرة العميقة المظلمة داخل الرمال يسمع صراخ الجندى المصاب . وتعجب لنفسها ، فهذا الجندى يصرخ ويبكى .. انه بشر مثلنا . وكأنما محت صرخات الجندى كل ما فى قلب الريس عواد من حقد ، فتمنى لو يعيش ، غير أن أمنيته لم تتحقق .. فقد علم فى الصباح أنهم دفنوه . وحزن الريس عواد كثيرا على الجندى القتيل .. هذا المسكين الصغير لم يكن له ذنب . انه مثل الصاجن وابلى عبد المأمور والأوامر هى التى قتلت أخاه وهى التى قتلت كل الجنود . وهو عرف خلال الحرب جنودا يكرهون مهنتهم ، ويكرهون رؤساءهم المتعجرفين الذين يصدرون الأوامر بالزحف وبالقتل ثم يتركونهم يموتون

وعندما انتهى الريس عواد من أفكاره كان المكان قد خلا تماما الا من عربة واحدة على وشك القيام . والجنود الذين بداخلها يدورون حول أنفسهم وأيديهم متشابكة وأصواتهم تهمس بلحن رقيق سمعه الريس عواد فى ليبيا من قبل . وتعجب لأن الجنود الصغار مازالوا يحفظون الأغانى التى كان يرددها الآخرون أيام الحرب . وعندما مرت العربة من أمامه هب الريس عواد واقفا على قدميه رافعا كلتا يديه بالتحية ،

وفمه الواسع مفتوح عن ابتسامة عريضة . وعندما استدارت العربة واختفت جلس الريس أمام العشة ينظر الى المعسكر الذى أصبح خاليا من الجنود ، ثم مد يده فى جيبه فأخرج علبة السجائر الضخمة فأشعل سيجارة وراح يجذب منها أنفاسا عميقة وهو يتحسس ساقه المريضة من أثر شظية قنبلة أصابته فى ليبيا . ثم رفع بصره وثبته على بوابة المعسكر عندما لمح عربة فاخرة تجتاز البوابة وفى داخلها ضابط يلف حول البرنيطة شريطا أحمر ، ومد الريس عواد رأسه فى الفضاء محدقا النظر داخل العربة التى انطلقت على الطريق فى اتجاهه لابد أن هذا الذى بداخلها واحد من الذين يصدرون الأوامر للجنود ليقتلوا الناس ثم يتركهم يموتون . لقد سمع عنه كثيرا أيام الحرب .. وهنا فى القنال . وعندما أصبحت العربة أمامه بصق على الأرض فى غضب شديد ، ثم مسح فمه براحة يده الخشنة .. وارتعشت شفتاه وهو يقرأ الفاتحة على روح المرحوم منصور .. والصناجن رايلى .

قضيــــة ..



كانت الساعة السادسة صباحا حين خرجت من بيتها فى الأزهر فاتجهت الى ميدان العتبة ومن ثم انحرفت الى شارع محمد على فميدان باب الخلق ، ثم اتجهت الى دار محكمة العمال ولم تلبث أن واصلت سيرها فى الاتجاه الذى أشار اليه .. وهناك سألت جنديا يقف عند الباب عن مكان محكمة العمال ولم تلبث أن واصلت سيرها فى الاتجاه التى أشار اليه . كانت المحكمة لم تبدأ عملها بعد ، وجموع كثيرة من الخلق تحوم فى الساحة المنبسطة أمام المحكمة وتجلس القرفصاء على أرض الفناء الداخلى ، والجميع مشتبك فى حديث طويل لا ينتهى عن سير القضايا ، ورقة قلب القاضى ، وقسوة قلب الآخر ، وصاحب الوجه السمح ، وصاحب الوجه الكئيب ووقفت هى بينهم لا تدرى ماذا يجب عليها أن تفعله وكل ما لديها الآن خطاب من قلم المحضرين يأمرها بالحضور اليوم الى المحكمة للنظر فى القضية المرفوعة منها ضد الخواجا روبير صاحب المحلات الضخمة القائمة كالهرم الكبير ..

وعندما سألت أحد الحاضرين تقدمها الى لوحة معلقة على الحائط وانحنى عليها يقرأ بعينيه الذابلتين الأسماء المثبوتة فى غير وضوح ، ثم هتف بصوت عال :

— أيوه النهارده ياست ، أم زهرة والخواجة روبير .

وقالت أم زهرة تسأله :

— طيب وحاعمل ايه يانضرى ؟ ..

— تستنى لحد ماينده‌عولك ..

وأسندت أم زهرة ظهرها للحائط ، ولم يمض وقت طويل حتى شعرت بالارهاق الشديد فافترشت الأرض وجلست تتفرس فى وجوه القادمين والخارجين ثم مالبثت أن كلت عيناها

من كثرة التحديق فى الوجوه .. فحولت نظراتها نحو الأرض وراحت تردد بينها وبين نفسها العبارات التى قررت أن ترويها للقاضى حين تنتهى اليه . والمسألة بسيطة وليست فى حاجة الى شرح « أنا واحدة ست عجوزة وغلبانة وشرف سعادتك ، وباجرى على سبع يتامى ، ربنا يديك العمر الطويل ، وعمه الى رفدوتى ، وناس طيبين زى حضرتك قالوا أجى لسعادتك ، وأنا عشمانه فيك وفى ربنا ، دول سبعة يتامى والنبى يابيه » ..

هذه هى الحكاية كلها ، ليست فى حاجة الى شرح كثير ، والقاضى ربنا يجعله طيب ابن حلال فيأمر بالغاء قرار الفصل وتعود الى عملها تغسل الهدوم فى المصنع الملحق بمحلات الخواجة روبير ..

ورفعت أم زعرة رأسها من جديد تحدق فى وجوه الخارجين والداخلين ، وأخرجت من بين طيات ملابسها ورقة صغيرة مطوية سلمتها لواحد كان يعبر الفناء على عجل شديد .

– خد والنبى تشوف القضية دى ابنى ؟

وقرأ الرجل الورقة بسرعة ، ثم عنف وهو يتابع سيره .

– دى القضية نمرة ٣٢ .. بعد شوية .

ولم تفهم أم زعرة هل هى بعد شوية كثير أم شوية قليل . ولكنها لم تكترث لهذا كثيرا بل تركت رأسها تتدحرج على صدرها وراحت تفكر من جديد فى اللحظة العصيبة التى ستمر بها عندما تواجه القاضى صاحب الهيبة والمقام الكبير وفكرت أم زعرة فى الكذبة التى اخترعها لها عبد السلام الجزمجى الذى يسكن الحجرة المقابلة لحجرتها فوق السطح ، والذى أكد لها انها بهذه الكذبة ستربح القضية ما فى ذلك من شك .

– قولى انك بياعة فى المحل ، ماتقوليش غسالة ، عمه الغسالات لهم حقوق . لما تقولى بياعة القاضى يرجعك على طول ..

وذهب تفكير أم زعرة الى كل اتجاه ..

– هل صحيح ان القاضى سيصدق هذا الزعم ؟ ولكن من يدرى ، ان القاضى لم يرها فى حياته ، ولا يعرف ان كانت

غسالة أم بياعة ، وهى لابد لها من أن تكسب القضية لتعود الى مصنع الخواجا روبير ، فهى منذ أن طردت من المصنع وهى تدور كل يوم كالنحلة على بيوت الطلبة تغسل وتكنس وتطبخ وتتقاضى قروشا لا تكاد تفى بمطالبها التافهة .

وعندما كانت تعمل عند روبير كانت تعمل ست ساعات فقط فى اليوم ، وتتقاضى أجرا مناسبا خمسة عشر قرشا . ولو انها كانت فى شبابها الذى ضاع لما أقلقها شىء . فمنذ عشرين عاما كانت تلف وتدور ، كانت صحتها عال وزى لبمب ، لم يكن الروماتيزم قد هشم ساقيها ، ولا البرد مزق صدرها ، ولا البكاء صبغ عينيها بلون الدم ، والله يرحمه المرحوم عندما كان حيا يرزق ، كان سبعا ، وكان يشقى ويرتاح ، ويكدح لتسعد ، ثم سقط ميتا فجأة لا تدرى لماذا ؟ وكان فى عز الشباب ! ومن يومها وهى تذوق المر ، وتشرب كل مرارة الحياة لتجرى على السبعة اليتامى الذين كبروا الآن وشاخوا ولا فائدة ترجى منهم على الاطلاق . فأربعة منهم بنات مكسورى الخاطر والجناح ، والثلاثة الشحوط الآخرين لا يعملون شيئا كقاهم اللطعة على القهوة ، ولعب الورق والخطف أحيانا من عباد الله ..

وناس واحد يجرى مهرولا الى داخل المحكمة على طرف ملاءة أم زعرة فانتزعها من خواطرها .

وعندما نفضت التراب عن طرف الملاءة كان الحاجب يصرخ على بعد خطوات منها :

– أم زعرة والخواجا روبير ..

وصبت أم زعرة مذعورة وكأنها مسوقة الى السجن ، وقطعت الفناء وثبا ثم انحرفت الى الردهة الطويلة ..

ومن ثم وصلت الى قاعة المحكمة وتناولتها يد خشنة دفعت بها أمام المنصة التى يجلس خلفها القاضى ، وعندما نظرت اليه اطمأن قلبها قليلا فقد كان شابا فى منتصف العمر حليق الذقن عارى الرأس ، تدل قسماته الوسيمة على أنه ليس بالصورة التى رسمها له خيالها العريض .

وعندما سألها القاضى فى رقة :

– أنت أم زعرة ؟

أجابت على الفور دون تعلثم :

– أيوه يابيه ربنا يخليك

مالكيش محامي

أنا غلبانة وبجرى على سبع عيال يتامى ربنا يديك طولة العمر يابيه ..

وقال القاضي في هدوء :

– وكنت بتشتغلي ايه ؟

وترددت أم زهرة قليلا قبل أن تقول :

– بياعة ..

وغاص قلب أم زهرة في ركبتيها عندما سمعت صوتا أجشا يرتفع الى جانبها يكذبها في ثقة :

– الكلام ده كذب .

ونظر القاضي الى صاحب الصوت بسرعة ، كان رجلا في الأربعين من عمره ، قصير القامة ، ضخم الجثة أحمر الوجه جدا كوردة متفتحة ، يتدلى تحت أسفل ذقنه لغد سمين ، وكان يرتدي بذلة بيضاء حقيقة ويمسك بيده منديل معطر تفوح منه رائحة نفاذة ، يمسح به وجهه بين الحين والحين ليجفف العرق المتصبب على جبهته العريضة الحمراء .

وقال القاضي للرجل القصير البدين :

– الأستاذ حاضر عن روبير ؟

– أيوه يافندم .. شوكت رشاد يحضر عن المدعى عليه الخواجا روبير ..

واتجه القاضي من جديد الى أم زهرة وسألها في رفق شديد :

– وبعدين ياخاله ..

– عمه رفدوني وحياة شرفك ، وانا كنت بياعة .

وعاد المحامي يرفع صوته بنفس الكلمة :

– كذب ..

وقاطعه القاضي على الفور :

– سيبها يا أستاذ أما تتكلم ..

– بس أنا عاوز أوضح لعدالة المحكمة حاجة مهمة جدا .

– طيب لما تسمع لها الأول ، عمله ايه الحكاية ياخاله ؟

– ولا حاجة والنبي ياسعادة البيه عمه اللي قالولي ماتجيش بكره ..

– اشتغلتي عندهم أد ايه ؟

– سنة وجمعتين

– وكنت بتاخدي كام ؟

– ١٥ قرش في عين العدو .

ولم يكد القاضي يلتفت الى محامي الخواجا روبير حتى كان الأخير مستعدا متحفزا وكأنه على وشك الدخول في معركة فاصلة يتوقف عليها مصير العالم . وانطلق من فوره يقول في حماس شديد :

– سـيدي القاضي .. هذه المرأة التي تقف أمامكم كاذبة في دعواها . فمحلات الخواجا روبير محلات معروفة بأناقتها ورشاقتها ، ولا يعقل أن تستخدم مثل هذه المحلات امرأة عجوزة كهذه لتعمل بائعة ، بل الحقيقة انها غسالة كانت تتردد على مصنع الملابس لتغسل الأقمشة قبل التفصيل كلما كانت هناك حاجة الى ذلك ..

وتوقف المحامي البدين عن الكلام ريثما يجفف عرقه المتصبب ، وابتلع رشفة ماء من الكوب الموضوعة على المنصة التي أمامه ثم واصل مرافعته قائلا :

– نعم يا حضرة القاضي ، لا يعقل أبدا أن تستخدم محلات روبير امرأة جاهلة محطمة عجوز في السبعين من عمرها كبائعة ..

وقاطعته أم زهرة على الفور :

– سبعين سنة ايه ، أنا عندي ٥٠ سنة وحياة شرفك يابيه مش اللي شلتاد من صغرنا ..

ولم يلتفت المحامي الى قولهـا .. بل مضى مستأنفا مرافعته بنفس الحماس الشديد محاولا جهده أن يبدو رشيقا خلال المرافعة وكأنه بطل مسرحي يتألق في دور عظيم ..

– ولكي أبين لسعادتكم مدى كذب هذه المرأة أطلب من من المحكمة أن تأذن لي بتوجيه بعض الأسئلة الى المدعية ..

وهز القاضي رأسه في هدوء وقال بصوت خفيض :

– اتفضل ..

وهنا اعتدل المحامى فى وقفته حيث أصبح مواجها تماما لأم زهرة ، وبعد أن أصلح من رباط عنقه وياقة جاكتته سأل المرأة التى بدت مذعورة كأرنب صغير :

– هل تعرفين الفرنسية ؟

– فرنسويه ايه ؟

– هل تعرفين الانجليزية ؟

– أنا ياخويا مبتش عارفه انت بتقول ايه ؟ أنا لاعرف حد ولا ليه دعوة بحد ، همه قالولى انت مرفودة كنت باخد ١٥ قرش فى اليوم ..

ثم التفتت الى القاضى من جديد وقالت وحياة شرفك يابيه آنا مظلومة ..

وارتفع صـــوت المحامى من جديد يخطب فى نبرات قوية وبألفاظ منتقاة :

– يا سيدى القاضى .. أردت من وراء أسئلتى لهذه المرأة ان أثبت لكم بالدليل القاطع مدى جهلها، فهى لا تعرف حرفا من الفرنسية أو الانجليزية وهذا دليل ساطع على أنها كانت غســـالة وليست بائعة ومن هنا ترون حضراتكم أن الدعوة لا محل لها وان المحكمة ليست مختصة بنظرها . لأن المدعية لا تخضع لبنود قانون عقد العمل الفردى ، فهى غسالة تعمل حسب الطلب ، وليست بموعد معين أو أجر معين .

وعندما وصل المحامى البدين الى هذا الحد من المرافعة كان جســـده كله يرتعش ، ووجهه تتقلص عضلاته ثم تنفرج ، وصـــدره يعلو ويهبط ، وعروقه تبرز منتفخة بالدماء التى تتدفق حمراء نقية داخلها . ثم بدأ صوته يعلو أكثر ، ويداه تتحركان فى الفضاء تشرح مفهوم الكلمات ومعناها ..

– يا حضرات القضاة ، ان العـــدالة تقتضى رفض الدعوى وتلقين مثل هؤلاء الأفاقين درسا لا ينسونه ، ان الخواجا زوبير رجل شريف لا يسمح له ضميره الحى ، ولا تاريخه الناصع بأن يأكل أجر عامل من عماله ، ولكن هذه المرأة ليست عاملة عنده ، ولا هى شىء على الاطلاق ، بل هى غسالة غشاشـــة مدلسة تريد أن تحصل على المال ولو بالكذب والخداع .

كان الحماس الشديد الشبيه بالحماس الذى يسيطر على جندى خلال المعركة يسيطر على المحامى البدين كان يتراقص وكأنه خطيب عهد اليه بمهمة اثارة الجماهير نحو عمل عظيم كان يتكلم بايمان راهب يدعو الناس الى الرجوع لحظيرة الدين ، وبحماس زعيم يدعو الناس الى الثورة ، وعندما انتهى كان العرق يغطى وجهه ويغطى يديه ويبلل المنديل الذى يتدلى من بين أصابعه ..

وعندما صمت أخيرا نطق القاضى فى هدوءه المعهود :

– الحكم آخر الجلسة ..

وخرجت أم زهرة تتعثر فى طرف ملاءتها وعندما أصبحت خارج القاعة سألت العسكرى الذى يقف عند الباب :

– هو الحكم ايه والنبى يابنى ؟

– لسه آخر الجلسة ..

فمضت تقطع الزحمة الضيقة المعتمة . ومن خلفها خرج المحامى يدب على الأرض بأقدامه القوية ، ويده تمسح وجهه بالمنديل المعطر ، ورأسه مرفوعة الى أعلا فى زهو شـــديد وكأنه قائد مشهور انتصر فى معركة خالدة ..

وعندما اصطدم بأم زهرة فى نهاية الزحمة نظر اليها فى استنكار ورعب وكبرياء ، ثم انحرف بعيدا عنها .. ومضى !

شـد اللبان ..



يخرب بيت الذين نصحوك يارشوان بركوب المركب . لقد انهد حيلك وانقطع قلبك ، وستموت حتما قبل أن تصل الى مصر ، ولو فعلت كما أوحى لك تدبيرك وعقلك لكنت الآن فى الطريق الى مصر خفيفا على قدميك ، ولما كانت الحبال قد ادمت كتفك وعنقك وأنت مربوط فيها طول النهار كأنك قرد ، والمركب من خلفك ، ومن فوق المركب آلاف البلاليص ومن

فوق البلاليص عشرة رجال يملكون المركب ولا يتحرك رجل منهم ليشد اللبان قليلا يارشوان ..

وزفر رشوان زفرة حارة وهو ممدد كالفسيخة على ظهر المركب ينظر فى نجوم السماء ، ومياه النيل ساكنة متموجة فى رفق ، ولا نسمة هواء ويبدو انها لن تكون وسيشد اللبان فى الصباح كما شده كل يوم منذ شهر ، ورفع رشوان يده التى أدماها الحبل يتحسس عظامه التى تحطمت وعروق رقبته التى برزت وانتفخت وأصبح لونها أزرق من النيلة .. انه الآن فى بنى سويف وبعد خمسة أيام سيصبح فى مصر ولكن من يدرى ، فقد لا يصل الى مصر أبدا انه يحس الآن احساسا صادقا نابعا من جروحه التى تقيحت ، انه سيموت فى الطريق وسيدفن فى قبور مهجورة مجهولة كالكلب ، والله ينكد على صالح فهو الذى أشار عليه بهذه المشورة الغبية وأكد له أنه لن يشد اللبان أكثر من يوم .. وربما يومين وأحس رشوان بحركة غريبة من خلفه فاستدار بعنقه ليرى من هناك ، ولم يكن هناك سوى الريس سليم الذى يملك أكبر حصـــة فى المراكب ، وكان يتأهب للصلاة ، فرش جلبابه ناحية القبلة ، ثم بسمل ورفع يديه نحو رأسه ، ولكنه فجأة أحس برشوان يتقلب على ظهر المركب كالسمكة فسأله فى استنكار :

– جاعد كده ليه يارشوان ، عما تفكر فى ايه ؟

– فى حال الدنيا ..

– ومالها الدنيا ماهى عال ..

– عال جوى عشان مانت جاعد زى البلاص طول النهار ، وأنا عما اشد فى اللبان لما انهد حيلى ..

عجايب ياخوانا على رجالة اليومين دول .. دى رجالة وزع .. وظل الريس سليم وكبر واستغرق فى الصلاة ، ومرت على ذهن رشوان كل ذكريات الأيام المريرة التى عاشها فى النهر على ظهر المركب ولا عمل له الا شد اللبـــان ، فهو فى حاجة فعلا الى السفر الى مصر ، بعد أن وصله خطاب يفيـده بضرورة الحضور للعمل فى شليش الخضـــار بروض الفرج ، وكانت أمنية رشوان الوحيدة أن يجد عملا فى مصر ولو من غير أجر ، فهو يعلم أن زيدان وعبد المعبود بدأوا حياتهم فى

الشليش بوجبات اليوم ثم أصبحوا بعد ذلك معلمين كبارا وأصحاب أطيان ، وهو لا يهمه كيف يبدأ المهم أن يجد ما يبدأ به ، ولكن المشكلة كانت في الطريقة التي يسافر بها الى مصر وهو لا يملك نقودا ولا يستطيع أن يقترض وفكر رشوان بعمق ثم قرر في النهاية أن يرحل الى مصر مشيا على قدميه ، فكرة وليس أمامه سواها ، وهو لن يعدم وسيلة ليجد غذاءه وثمن الدخان على طول الطريق ، ولكن صالح وجد له حلا للمشكلة : لماذا لا يركب مركبا الى مصر ولن يدفع شيئا ، ولكنهم سيطلبون منه أحيانا أن يشد اللبان عندما تكون الريح هادئة والمركب عاجزة عن السير في مجرى النهر .. وصالح نفسه جرب هذه من قبل ، ودخلت الفكرة رأس رشوان وهو قوى ويستطيع شد المركب عندما تهدأ الريح .. وهى لا تهدأ الا يوما وربما يومين ، وذهب رشوان الى النفر ، وساوم واتفق وجاءت فرصته في مركب الريس سليم .

وكانت الريح عظيمة نشطة ، والمركب تسير كالوتش ولا حاجة هناك لشد اللبان ، خمسة أيام فقط ثم هدأت الريح تماما وكأنها ماتت .. وجاء الدور على رشوان ليجرها بدل الريح ، وهكذا ربط نفسه في الحبل وغاص في الطين عند حرف البحر وشيلا هوب والمركب تتهادى من خلفه ومن فوقها البلاليص ومن فوق البلاليص عشرة رجال ، ومضى يوم ويومين وأسبوع والريح يبدو أنها لن تبعث من جديد ..

ولو واحد فقط من الذين على ظهر المركب يشد اللبان ليوم واحد يستريح فيه رشوان اذن لصار قادرا على الشد أبد الدهر ، ولكنهم جميعا يرفضون .. انهم أصحاب المركب ، كل منهم له حصة ، ثم ان الاتفاق حدث بينهم وارتضاه رشوان ولم يجبره أحد على أن يقبله .. وفي الأمسيات التي كان يسهرها رشوان مع الرجال العشرة كان أحيانا يثور على الوضع الذى انتهى اليه الحال على ظهر المركب ، وكان يصرخ فيهم محتجا ..

– هوه مافيش عدل .

– كلام ايه ده اللى انت بتقوله ؟

– هوه مافيش رجالة تانى تشد .

– ماهوه انت اللى رضيت ، كان حد ضربك على جفالك ؟

– طيب وسيدى عبد الرحيم للمشى بكره وسايب المركب .

– مع السلامة ياخى ، انت حتشاركنا ولكنه كان يعجز دائما عن تنفيذ وعيده ، انه لا يستطيع أن يغادر المركب ، لقد شد اللبان أكثر من أسبوعين فكيف يتركها اذن وقد تهب الريح فجأة فيستريح ، ثم هى لابد أن تهب حتى لا يفوت الوقت وتضيع الشغلة .. ولو ضاعت اذن لمات جوعا فى مصر ، وماتت الأولاد فى الصعيد . ولكن الريح ظلت ميتة حتى وصل المركب الى أسيوط .. ونامت بعد ذلك بجوار الشاطئ خمسة أيام كاملة ولم يغادرها رشوان أبدا كان مشغولا عن النزول الى البر بجروحه وهمومه وتفكيره الدائم فى الشغلة وفى الأولاد ، وفى عبد المعبود وزيدان وصابر الذين أصبحوا بتكيرة وأصحاب أطيان .. ثم جاءت الريح بعد ذلك وانزلقت المركب فى الطريق الى مصر ، واستطاع رشوان أن يهدأ وأن يطيب جروحه ، وأصبح قادرا على الحركة وعلى المشى .. وأحيانا كان ينزل الى البر عند القرى التى تقف عندها المركب فيطوف فى داخلها يشاهد معالمها .

ان الجو بعد أسيوط أرق منه فى داخل الصعيد ، والخير هنا أكثر والناس أنظف وأغنى ، والنساء أجمل ولونهن أفتح من اللاتى فى الصعيد .. لابد أن النساء فى مصر يشبهن الخواجات السواح اللاتى يفدن الى الصعيد فى الشتاء ، وياخرابك يارشوان لو وقعت فى واحدة منهن ، عندها مال قارون ، وعمارات مثل عبد المعبود ، وغيطان مثل زيدان ، ياخرابك يارشوان لو حدث التى فى بالك ، ولماذا لا يحدث ؟ والواد الترجمان العدمان صمويل ماتت فى دباديبه خواجاية من أمريكا ، وأصبح صمويل العدمان من أعيان أسوان وابتسم رشوان وهو يتخيل نفسه فى الجبة الجوخ والقفطان الحرير والعصاية الكريز والجوز الأجلسيه ، والخواتم الذهبية فى أصابعه واللاسة الكشمير على كتفيه ، والعيال فى الصعيد سيدفع لهم كل شهر مائة جنيه ، بل تكفى عشرة . أحلام جميلة قد تتحقق ، ولكن لو تهب الريح فتدفع المركب الى مصر قبل أن تطير الشغلانة وهو يعلم أن العاطلين فى مصر أكثر

من البلاليص فى الصعيد ، ولكن الريح تموت مرة أخرى عند المنيا ، وعات يائسد .. ويئن رشوان ويتوجع ولا مجيب وقد استطاع أن يصل بالمركب الى بنى سويف ، وأمامه الآن خمسة أيام لو هبت الريح والريح كانت دائما تهب قبل أن يركب هو المركب .. ولكن لماذا ركب هو فى بؤونة .. انه سوء الحظ .. وكان من الممكن أن يستمر رشوان فى شد اللبان لولا زجاجة كبيرة مشطورة نصفين دخلت فى رجله فقطعتها وترق دمه كأنه يسيل من حنفية ..

وأحس رشوان بهبوط فى قواه . فنام على ظهر المركب وقد حشا الجرح المفتوح طينا وترابا ولفه بخرقة وجدها عند الشاطىء وراح يزوم كالكلب المصاب ، والجرح يزداد ألما ، والحمى التى كانت فى ساقه الجريحة شملت جسمه كله . وراح رشوان فى غيبوبة .. يتذكر أم عياله التى تركها بلا قرش ، وعياله الصغار والشعلة التى فى الشليتى ، والثورة الهيبة التى أشار بها صالح والتى لولاها لكان الآن يسير على قدميه خفيفا كالفراشة نحو مصر . ولم يدر رشوان وهو فى الغيبوبة ان الريح قد هبت قوية رغم بؤونة ، وان المركب تنزلق بسرعة مع التيار وانه قد أصبح فى مديرية الجيزة ، وفى الصباح سيكون فى مصر . لم يدر بشىء عن هذا كله ، فقد كانت الحمى تأكله ، وتأكل وعيه ، فكان لا يرى الا الماء ولا يتذكر الا شد اللبان الذى جاء بخيره . وفى الليل حلم رشوان ، أحلاما مزعجة وهذى بكلام كثير حتى أن الرجال أصحاب المركب أيقنوا أنه سيموت فالتفوا حوله ، يبللون جبهته بالماء البارد ويقرأون حوله بعض الآيات ..

وعندما جاء الصباح كانت المركب قد بدأت فى رحلتها مع التيار منذ الفجر ، وكانت الشمس تقف عالية ناحية الشرق ورشوان ممدد مكانه على ظهر المركب فاتحا عينيه وقد زالت عنه وطأة الحمى القاسية التى استبدت به . ونهض فى تثاقل وقد تأكد ان المركب تجرى وأن الريح تهب قوية نشطة . والتيار يدفع بالمركب سريعا نحو مصر . وعندما رأى على الشاطئين البعيدين سرايات جميلة وسيارات تسابق الريح تأكد انه أصبح فى مصر فاستدار الى الناحية الأخرى محدقا

لنظر فى معالم الطريق الذى ينحدر فيه . وعندما رفع بصره أمامه أشرق وجهه الكالح ، وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه . كان كوبرى عباس يقف على بعد قليل يسد مجرى النهر وكأنه حارس عنيد . وجلس رشوان مكانه وهو يشكر الله على أن نجاه من موت أكيد . وعندما اندفعت المركب أسفل الكوبرى فى طريقها الى روض الفرج طاف بخياله عبد المعبود وزيدان وصمويل الترجمان الذى أصبح بتكيرا ومن أعيان أسوان ..

خوخة السعدان ..



وراحت شوشو من ميدان السيدة زينب تخترق الأزقة والحوارى . وتسأل بعد كل خطوة عن خوخة السعدان . وعلى طول الطريق ترمقها ألف عين نصف نائمة نصف يقظانة ، يتمطى أصحابها فى كسل لذيذ وفى شمس الشتاء على المقاهى الكثيرة المتراصة بجوار بعضها على الطريق وأحست شوشو بالضنى وأحست بالتعب وتمنت لو استطاعت ان تعود من حيث جاءت بعيدا عن هذه الخرائب التى تفوح منها رائحة كريهة : وكأنها رائحة خنزير مذبوح !! ولكن ماذا يقول عنها بابا وماما وكل اخوتها وقد تحدتهم جميعا ، وأصرت أن تسير وحدها حتى نهاية الشوط .. نعم ماذا يقول كل هؤلاء لو انها نكصت على عقبيها وعادت الى قصر أبيها من جديد ولكن لو أن هؤلاء الناس المتبطلين الخاملين لم يسددوا اليها نظراتهم وكأنها رصاصات مدفع رشاش تخترق كل مكان فى جسمها اللدن الجميل ..

ترى ما السبب الذى يجعلهم ينظرون اليها وكأنهم جوعى أمام وليمة فاخرة رفع الغطاء عنها فجأة وبلا تدبير !

ألم يسبق لهم أن رأوا نساء ؟ أليست لهم زوجات وبنات وصديقات .. وربما خليلات أيضا ..

ولكن أليس هؤلاء هم الفقراء التى وطدت العزم على خدمتهم والدفاع عنهم والسهر على مصالحهم ، وهذه الرحلة الطويلة الشاقة التى تقطعها الآن فى سبيل رفع مستواهم وانتشالهم من الحضيض الذى يعيشون فيه .

وتوقف عقل شوشو قليلا عن التفكير وفركت بأصابعها النحيلة المدببة الورقة المطوية المعطرة التى كانت تنام مستريحة فى راحة يدها . واستوقفت رجلا كان يعبر الطريق . وألقت نظرة على الورقة ثم سألت المعلم المعمم .. وتنهدت ببطء قبل أن تسأله عن خوخة السعدان ، وقطب الرجل جبهته ، وضيق ما بين عينيه ورفع سبابته وضربها فى أنفه ، ثم ألقى نظرة طويلة فاحصة على الست اللى التى تقف أمامه كآلهة من آلهة الجمال ثم قال فى هدوء :

ـ خوخة السعدان ..

وردت شوشو فى ضيق شديد .

- أيوه ..

وعاد الرجل يتكش بسبابته فى شعر رأسه ثم فى فتحة منخاره ، ثم ثنى احدى ركبتيه وكأنه على وشك الجرى فى سباق عنيف ، وقال فى نفس هدوئه المعهود .

- اللهم صلى على كامل النور ، بقى خوخة السعدان على طول كده ، وبعدين تكيسرى على ايدك اليمين كده ، وتمشى على طول لما تلاقى قهوة قدامها تلاجة ، تيجى كسرة شمال ، وبعد شوية يصادفك جامع ، وهناك بالصلا على النبى تسألى عن خوخة السعدان .. ألف واحد يدلك ..

ولم تفهم شوشو حرفا مما قال ، وعادت تواصل رحلتها المضنية الى حيث أشار الرجل المعمم الكريه ..

ووقع نظرها على عشش مهدمة ، وبرك طين يسبح فيها الكلاب واستاءت شوشو لكل هذا الفقر المحيط بها . وتمنت لو تعثر على حل سليم للقضاء على كل ما فى هذا الحى من فقر . وتمنت لو انها تملك ملايين كثيرة ، اذن لتبرعت بآلاف عديدة ، لتشترى لهؤلاء الناس صابونا وجازا وخبزا وسيارة لتنقل أطفالهم الى المدارس ، وأجهزة راديو ، واسطوانات لموزارت وبيتهوفن ورمسكى كورساكوف . آه لو استمع هؤلاء الفقراء الى موسيقى كورساكوف اذن لارتقت أحوالهم ، وتغيرت معالم حياتهم ولأصبحوا خلقا جديدا !!

وتاهت شوشو قليلا عن الفقر الذى خلفها ، والفقر الذى أمامها ، والطين الذى يلطخ كل شىء فى الشارع الضيق الملتوى وكأنه بداية طريق يؤدى الى المقابر ..

وسرح عقل شوشو فى الكلب الذى خدعها والذى وعدها بالزواج ، كانت تظنه رجلا ، وكانت هيئته تدل على أنه رجل فعلا ، هيئته الطويلة العريضة ، كلامه المعسول ، شاربه الأصفر الجميل ، عضلاته المفتولة ، قلبه الذى لايخشى مواجهة الأسود . ولكن كل هذا تبخر فى لحظة .. وبدا لها فى ثوبه الحقيقى ، عاطل مفلس جبان ، وهيئته الجميلة هى كل ميزته فى الحياة !!

وانحدرت عبرة على خد شوشو ، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها ، فراحت من جديد تنظر الى الناس ، والى الحيطان ،

والى الأطفال والكلاب . واقتحم سمعها كلام غريب يطلقه الناس بلا استحياء .. ويقصدون به التحية والسلام .

كلام لم تسمع مثله من قبل وأوصاف تكاد تجعلها تضرب رأسها فى الحائط . هؤلاء الفقراء ليسوا مؤدبين ، لو انهم دخلوا مدارس أجنبية اذن لتعلموا الذوق ولفهموا معنى الاتكيت . ويا سلام ياشوشو لقد ضبط الحل السليم الذى كانت ترجوه .

وليكن حل المشكلة من هنا .. من المدارس الأجنبية . فانها لو لاقت وسيلة لاقناع هؤلاء الناس بضرورة الالتحاق بالمدارس الأجنبية ، اذن لضمنت تخريج جيل جديد من هؤلاء الفقراء يعرف كيف يتحدث وكيف يأكل ، وكيف يحب وكيف يتصرف برشاقة .. وعندئذ سوف تصفو لهم الحياة ..

واستيقظت شوشو من أحلامها على حائط عريض يسد الطريق . واحتارت من أين تنفذ .. لابد انها ضلت الطريق . وسألت شوشو حتى علمت انها لم تضل وكان عليها أن تحنى قامتها الرشيقة لتمر من ثقب فى الجدار يوصلها الى خوخة السعدان ، وانحنت شوشو ومرت من الجدار . وتمزق جوربها الحرير الطبيعى واتسخ معطفها الفرو ، ولكن ماذا يهم .. مادام كل هذا فى سبيل الفقراء !

وامتلأ قلب شوشو بالخوف عندما حلت على خوخة السعدان ليس هذا المكان بشارع ، ولا بحارة ، ولا بزقاق ، الوصف الصادق له انه خرم فى الحى ، وهل من المعقول أن أحدا من الأحياء يعيش فى هذا المكان ؟ ..

وسألت شوشو ودلها أولاد الحلال على المكان الذى تريده . ومضت من جديد عبر الخوخة تفكر فى الحالة النفسية الرهيبة التى ظلت تعانيها عاما كاملا بعد أن فر من يدها العاطل الجبان

كم مرة فكرت فى الانتحار ، وكم مرة فكرت فى دخول الدير ، وكم مرة بكت وبللت وسادتها بالدموع ، لقد فر الجبان ومعه شىء عزيز كان من الواجب أن تحرص عليه ، ولكنها لم تبك من أجل هذا ، كان السبب فى بكائها هذا النذل نفسه ، فكم أحبه قلبها الصغير .. ولكنها أخيرا عرفت الطريق الى السلوى والى النسيان . ليس هناك من ميدان تستطيع

أن تسلو فيه أحزانك الا ميدان خدمة الفقراء . وهى ترجو أن توفق وترجو أن تنجح فى الوصول الى حل سريع . انها واثقة من الفوز . لقد تحدت أسرتها وتحدت رئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وستثبت لهم جميعا أنهم كانوا على خطأ .. وهى وحدها التى كانت على صواب . انها لاتنسى أبدا حديث بابا عندما همست له برغبتها فى خدمة الفقراء .

ـ هؤلاء الفقراء كلاب ، لا يحمدون الله أبدا ، واذا شبعوا تمردوا .. ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء ..

ولكن شوشو لم تصدق بابا أبدا ، فمن الممكن جدا أن يتصلح حال هؤلاء الفقراء .. فقط لو وجدوا واحدة تفهم الحياة ، وليس مثل شوشو من يفهم الحياة !

واستراحت شوشو من عقلها الباطن ، فقد وصلت أخيرا الى المكان الذى تقصده فى خوخة السعدان ..

وسألت عن محمد كباره ، وقادها طفل عار تماما الى مكانه . رجل مهدم رغم أنه فى الخامسة والثلاثين ، يلف رأسه بخرقة بالية لا لون لها ، وجلباب تزينه الثقوب ، يجلس على الأرض والى جواره كوز من الصفيح يتصاعد من داخله بخار ويتأرجح فى أعماقه شيء أسود اللون لابد أنه شاى ، أو ربما هو هذا الشيء الذى تسمع به .. والذى يسميه الناس .. الحشيش !

ووقفت أمامه برهة تنظر اليه ثم الى الورقة المطوية ، وبدا من منظر كبارة انه لم يفاجأ بمنظرها .. فقد كان وجهه جامدا وكأنه نائم فى مكانه هذا منذ عام . وسألته شوشو برفق :

ـ انت الأستاذ محمد كبارة ؟!

وضحك كبارة ضحكة ميتة .. ولكنها ساخرة :

ـ هأو .. قال استاذ .. ليه شايفانى لابس عمة . أيوه أنا كبارة . ايه فيه حاجة انسرقت منك انت رخره . حكومة انت ..

وارتاعت شوشو جـــدا ، واقشعر بدنها لهـذه البـداية السيئة ، ولكنها تمالكت نفسها .. فهى تجربة على أية حال . ومن يتصـــدى للخدمة العامة يجب أن يكون مسـلحا بالصبر والايمان .. حكمة جميلة قرأتها شوشو فى كتاب !!

وفكرت شوشو فى طريقة أخرى ترضى كبارة وتبدأ بها

الحديث ، ولكن كبارة نفسه كان لايزال يملأ الدنيا صراخا وسبابا ، وألفاظا يكاد شعر شوشو أن يقف من هولها !!

وحاولت شوشو جاهدة أن تهدئه . ولكنها لم تكد تبـدأ حتى برزت امرأة عجـوز من جحـر خلفهـا وفى يدها قردة شبشب ، ولسانها يطرقع فى الهواء كالسـوط .. تسب الدين والدنيا وكبارة وكل الناس !! .. وانهالت المرأة العجوز عـلى كبارة بالشبشب . وظل كبارة يصيح ويشتم ويسب هـو الآخر دون أن يتحرك من مكانه ، وفوجئت شوشو بشـلة كبيرة من الرجال والنساء والأطفال يلتفون حولها .. أكثرهم يتفرج .. وقلة قليلة تحاول فض المشكلة . وفهمت شوشو خلال هذا كله أن الذى جرى أمامها منذ لحظة لم يكن الا حلقة واحدة من سلسلة طويلة بدأت منذ الصباح الباكر بين كبارة والمرأة العجوز . والسبب ان المرأة افتقدت صفيحة قديمـة كانت لديها ، فلما لم تجدها اتهمت كبارة بسرقتها .. وأهل الخوخة جميعا يؤكدون أنها صادقة .

وعندما علمت شوشو بالحكاية كلها ، حاولت أن تتدخل لعقد صلح بين الرجل الذى جاءت تبحث حالته .. والمرأة التى ليس لها من صفات المرأة الا الاسم فقط .. حتى ملابسها نفسها كانت رجالى .. وكانت ممزقة !!

وقالت شوشو وهى تحاول ـ صادقة ـ فض المشكلة :

ـ ياجماعة بسيطة .. لازم كلنا نحب بعض ..

ولكن صوتا مازحا جاءها من الخلف من آخر الحلقة المضروبة حولها :

ـ كلنـا نحب القمـر .. والقمـر .. هأو .. يا خرابى يا جدعان .. أموت أنا !

وضحك الجميع .. حتى المرأة العجوز صـاحبة الصفيحة تقصعت وتمايلت .. وقالت بصوت مرتفع :

ـ آل نحب بعض ، ياختى بلا نيلة !!

وانفض السامر .. كل الى وجهته .. وبقى بعض الناس ملتفين حول شوشو .. وكأنها مخلوق عجيب يتفرجون عليه لأول مرة ..

ودارت شوشو بنظراتها تتفحص الذين من حولها . الشيء

العجيب الذي حيرها أن الجميع كانوا يشبهون كبارة ، وكأنهم اخوته من أب وأم . وعندما نظرت شوشو الى كبارة .. خطر لها أن تجرى وتفر . فقد كانت عروقه بارزة ، والزبد يغطى شفتيه ، وعيناه جاحظتان ، وهو يلطم خدوده بين الحين والحين ، وينفخ من شدة البؤس والضجر ..

وسألت شوشو واحدا من الذين يلتفون حولها عما به .. وجاءها الجواب بسرعة من أكثر من واحد :

ـ أصل الأسياد ماسكينو ..

ولم تفهم شوشو شيئا .. فقالت فى براءة طيبة :

ـ أسياد ايه ؟

وجاءها الجواب .. وفى الصوت رنة استنكار :

ـ أسيادنا اللى تحت الأرض ..

وسرت رعدة فى جسد شوشو ، ولم تدر ماذا تقول .. وأخرجها من ورطتها واحد من بين الملتفين حولها .. كان يبدو انه أكبرهم سنا ، وأيسرهم حالا كذلك ، فقد كان ممسكا برغيف يقضمه ، سألها الرجل فى ود عميق :

ـ الست عاوزه حاجه منه ؟

وأجابت شوشو على الفور .. وبلهجة املائية كأنها تلقى قطعة محفوظات :

ـ أنا مندوبة جمعية سيدات المجتمع ، وجايه أبحث حالته عشان نساعده ..

وقال الرجل الأشيب العجوز فى نفس الود العميق :

ـ أهلا وسهلا .. يا ألف مرحب ..

ثم التفت الى كبارة ، ولكزه بأطراف أصابع قدمه :

ـ ياواد ياكبارة .. قوم اتكلم مع الست .. عاوزه تساعدك

ولكن كبارة لم يرد ولم يتحرك .. فزعق الرجل العجوز فى وجهه :

ـ قوم يا شيخ جتك نيلة .. حد يطول ..

وأخيرا رد كبارة فى صوت أجش :

ـ ايه .. عاوزين منى ايه ؟

وهمست شوشو فى صوت لين حنون وكأنها تردد أغنية :

ـ بس .. كنت عاوزه اسألك كام سؤال ..

ورد كبارة على الفور هذه المرة .. دون أن يرفع بصره اليها :

ـ أى خدمة ؟ ..

وسكت برهة ثم أردف على الفور :

ـ أنا موش حرامى .. أنا أشرف واحد هنا .. آل صفيحة آل ..

وقالت شوشو :

ـ انت .. حضرتك اسمك ايه ؟

ـ محمد .. زقت .. كبارة

ـ وعندك كام سنة يا سى كبارة ؟

ـ أى حاجة .. أنا يعنى كان عقلى دفتر ..

ورأت شوشو أن تتفادى الثورة .. فقالت على الفور :

ـ طيب معلهش .. انت مؤهلاتك ايه ؟ ..

ورفع كبارة بصره لأول مرة .. وابتسم ابتسامة بدت ـ رغم فقره وقذارته ـ فى حالة ليست جميلة ، ولكنها أيضا ليست بشعة مثل منظره .. وأجاب على استحياء :

ـ أنا لسه ما تأهلتش ..

ثم عاد الى طبيعته الأولى .. وأكمل حديثه بعصبية حادة :

ـ أنا لاقى آكل .. أما أتأهل ..

ولم تفهم شوشو شيئا .. ولكنها رأت أيضا أن تتفادى كل ما من شأنه أن يعكر هدوء الموقف .. فسألته :

ـ طيب .. وبتشتغل ايه ؟

وقال كبارة :

ـ أشتغل ايه ؟ .. حلوه دى .. أعبى شمس فى أزايز .. آل .. شغليتى أنتى .. شغليتى ريس أو أى حاجة .. حلوه دى ..

ـ أمال عايش ازاى ياسى كبارة ؟

ـ عايش على الله وع الست ..

وبانت الدهشة على وجه شوشو فسألته مستنكرة :

ـ ست مين ؟

وكأنما استفزه هذا السؤال ، فتجهم وجهه .. وبدا شريرا كوجه غول .. وأجاب متحديا :

– انتى كمان موش مصدقة .. اساليهم .. بقولك الست .. أنا مخاوى ست جنيه من تحت الأرض .. أجدع ست جنية من تحت الأرض .. أجدع ست ، وطيبة ومسلمة زى حضرتك بالضبط ..

وسكت كبارة قليلا ، وحدق ببصره فى وجه شوشو قبل ان يضيف قائلا :

– ايه موش مصدقانى ؟!

وانتزعت شوشو منديلها الحريرى المعطر من حقيبتها ، وراحت تمسح به العرق الذى أخذ ينهمر من جبهتها على عينيها ، وأجابته وهى خائفة وجسدها كله يرتعد من منظره :

– مصدقاك ..

واستطرد كبارة حديثه قائلا :

– أجدع ست والله .. بتطلعلى هنا مرة كل شهر .. تجيبلى كل حاجة ، وتستحمه سوا . ربنا يخليها .

كانت شوشو قد وصلت الى حالة قاسية من الاعياء .. كانت تود لو ألقت بنفسها على الأرض وبكت الى ما لا نهاية . أحست أنها ألقت بنفسها فى حفرة مظلمة بشعة . وهؤلاء الفقراء الذين آمنت بهم وتمنت أن تخلصهم من شقائهم مجموعة من الوحوش الضارية .. جهلة .. وحمقى .. واشرار .. مثل أكلة لحوم البشر ، ورأت أن تنهى الحديث مع كبارة .. فقالت له مطمئنة اياه على مستقبله :

– طيب ياكباره .. احنا راح تساعدك ان شاء الله ..

ورد كبارة على الفور :

– امتى ؟!

– بعد يومين ثلاثة ان شاء الله ..

قالتها واستدارت لتنصرف .. وأفسح لها الناس الواقفون ونظراتهم الحادة مصوبة نحوها . وقبل أن تخطو خطوة قال كبارة فى جد ووقار هذه المرة :

– وحياتك تبقوا تساعدوا الست هيه كمان .. دى ست طيبة قوى .. لما تشوفيها راح تنبسطى قوى .. هيه بتطلع عنا مرة كل شهر .. أيوه .. فاضل أسبوع على ميعادها ..

وهزت شوشو رأسها موافقة .. واستدارت قاطعت الجميع

ظهرها وسارت تقطع خوخة السعدان بخطوات مترنحة .. وتفذت شوشو من الخرم الذى فى الحائط فأتى على بقية الجورب .. ولطخ الجزء النظيف الباقى من البالطو الثمين .. وراحت تحث الخطى فى الشارع الضيق الملتوى نحو ميدان السيدة .. حيث تنتظرها العربة الفارهة هناك ..

وعندما أطلت على الميدان الكبير ، استراحت نفسها واطمأنت .. وعندما دلفت داخل العربة .. ألقت بنفسها على الفور متعبة منهوكة القوى .. وأمام عينيها الجميلتين صور كثيرة غير واضحة .. صورة التذلل الحقير ، ورئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وكبارة ، وبابا .. ورنت فى اذنيها كلمات بابا الخالدة : « هؤلاء الفقراء كلاب .. لا يحمدون الله أبدا ، واذا شبعوا تمردوا .. ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء » ..

وقبل أن تدير شوشو مفتاح العربة ، مدت يدها فى خفة وسحبت من تحتها كتابا أزرقا أنيقا .. وألقت نظرة على الصفحة المفتوحة .. كانت هناك جملة تحتها خط باللون الأحمر : « الذين يتصدون للخدمة العامة يجب أن يكونوا مسلحين بالصبر والايمان » ..

ومدت شوشو أناملها المصبوغة فطوت الكتاب وألقته فى المقعد الخلفى ، وانطلقت بالعربة تسابق الريح ..

ومع الريح طارت الورقة التى كانت تحمل العنوان : « خوخة السعدان .. محمد كباره » ..



الشاهد الأخير ..

كانت قاعة المحكمة الشرعية قذرة ، وجدرانها متشققة .. والأرض رطبة مبللة .. تنضح برائحة خبيثة .. وبالرغم من من ذلك كله كان منظر القاضى رائعا وهو جالس على المنصة أمام الحاضرين .. كان شيخا فى الخمسين من عمره أشيب الشعر مستدير الوجه تفغ الدسم وجنتيه وأسفل ذقنه ..

وكان يرتدى زيا جميلا ينطق نوع قماشه بالمستوى الرفيع الذى يعيش فيه الشيخ ..

وكان صمت الحاضرين وتعلق أبصارهم به يضفى على الشيخ وعلى جو المحكمة شيئا من الوقار والاحترام ، وعندما رفع القاضى بصره عن الأوراق التى تناثرت أمامه بدت عيناه الصغيرتان الدعجاوان واخذ الشيخ يدور ببصره فيما حوله متفحصا وجوه الحاضرين ، ثم نظر الى محام شيخ يقف أمامه وهمس فى نبرة لطيفة :

ورد المحامى الشيخ وفى صوته ضراعة :

ـ آخر واحد يا فضيلة القاضى ..

وعندئذ أمر القاضى باستدعاء الشاهد الأخير محمد ابراهيم مبروك ..

وعندما ارتفع صوت الحاجب يردد الاسم أكثر من مرة دخل الى قاعة المحكمة شيخ فى السبعين من عمره .. لا يستطيع أن يرى أبعد من موطىء قدميه وكان لون جلبابه يشهد بمدى القذارة التى ترقد مطمئنة على جسد هذا الانسان الذى يبدو

فى جملته .. وكأنه عود حطب يابس وضعوا عليه جلبابا ممزقا ليخيفوا به الغربان .. وراح الرجل يتحرك فى بطء شديد نحو منصة القاضى ولكن فى ثقة الذى قطع الطريق نفسه من قبل .. وقد حنى رأسه نحو الأرض مختلسا النظرات صوب الرجل البدين الذى يقف الى يمين المنصة .

وفجأة ودون أن يرفع القاضى نظره عن الأوراق المنثورة أمامه سأل الشاهد الواقف أمامه فى لهجة سريعة ، وكأن هناك وقت محدد لاستجوابه :

ـ اسمك ايه ؟ ..

ـ محمد ابراهيم مبروك ..

وبنفس السرعة المحمومة عاد القاضى يسأل :

ـ وبتشتغل ايه ؟ ..

ـ تاجر .. من غير مؤاخذة ..

ـ وتعرف الست وجوزها ؟ ..

ـ أيوه يا فضيلة القاضى !! ..

ـ وايه اللى تعرفه ؟ ..

وعند هذا الحد كان القاضى والشاهد يتبادلان الأسئلة والأجوبة وكأنهما يتبادلان اطلاق الرصاص ، ولكن الشاهد غير من لهجته السريعة وراح يجيب هذه المرة بهدوء شديد .

ـ اصل أنا ساكن قدامهم فى نمرة ١٩ ، وكنت أشوفهم دايما نازلين فى بعض ضرب .. هوه يزعق .. وهى تديله بالشبشب .. لحد ما الناس كلها اشتكت من الحال ده !! ..

ـ حال ايه ؟ ..

ـ حال الست يعنى .. لأنها غلطانة اما الأفندى وحياة شرف سعادة القاضى طيب قوى زى السكرة ..

وبدا على وجه القاضى انه غير موافق على هذا الحديث .. فقال باشمئزاز :

ـ طيب وبعدين ؟ .

ـ وبعدين بقى يعنى من غير مؤاخذة الست تضربه بالشبشب والأفندى حاجة تانية خالص .. زى الملاك .

وبدا كأن أعصاب القاضى لم تحتمل أكثر من هذا . فصرخ مهتاجا فى الرجل العجوز :

– انت قلت الكلام ده قبل كده .. مفيش حاجة جديدة ؟
– ما هو أنا باقول اللي حصل وشرف سعادتك ..
– طيب وبعدين ؟ ..
– وبعدين ايه ؟ ..
– يا سلام !! .. انت راح تشهد والا تعمل عبيط ؟ ..
– لا يابيه .. أنا راجل كبارة وربنا هوه اللي يعلم !! ..
– طيب وبعد الست ماخدت العفش لغتدى طلقها ؟ ..
– أمال .. طلقها !! ..
– الكلام ده حصل امتى ؟ ..
– كلام ايه ؟ ..
– استغفر الله .. حكاية الطلاق ..
– حصل من مدة ..
– مدة قد ايه يعني .. في شهر ايه كان الكلام ده ؟ ..

وراح الشاهد ينظر في سقف المحكمة الذي كانت تغطيه مظلة من نسيج العنكبوت .. ثم قال بعد قليل :

– في شهر جماد ...
– وجماد ده شهر ايه .. عربي .. ولا أفرنجي ؟ ..
– عربي ان شاء الله ؟ ..
– طيب كان موافق شهر ايه أفرنجي ؟ ..
– كان موافق يا سيدي .. شهر طوبة ..

وعند هذا الحد من المناقشة لم يكن الشهود قد اشتركوا بعد – عمليا – في المعركة المحتدمة بين القاضي والشاهد ولكنهم عندما هتف الشاهد باجابته الأخيرة ارتفعت صيحاتهم تجلجل بالضحك في أركان القاعة ، وبعد أن عاد الصمت يخيم على جو المحكمة .. صاح القاضي مستنكرا :

– وطوبة ده شهر افرنجي ؟ ..

وهتف العجوز في ثقة :

– آه ..
– طيب عد الشهور الأفرنجي كده ؟ ..

وسكت الشيخ برهة قبل أن ينطق قائلا :

– أوسطس .. طوبة .. مارس .. يناير .. ربيع ..

وسرت في أنحاء القاعة موجة من المرح ، وابتسم القاضي

في سرور ..

وارتفعت ضحكات الحاضرين من جديد واستمرت بعض الوقت ، وبعد أن انتهوا من ضحكهم .. أتى القاضي بحركة برأسه تعلن عن فهمه لمثل هذا النوع من الشهود ..

وتململ الرجل الواقف الى اليمين في مواجهة المنصة والغيظ يكاد يأكله ..

واعتدلت السيدة الواقفة الى اليسار ، وهي تضم اليها ثلاثة أطفال صغار ..

وعاد القاضي يهتف من جديد موجها الحديث للشاهد :

– احنا وقفنا فين يا ؟ ..
– عند الربيع يا سيدي ..
– أيوه الربيع .. الربيع ..

ثم أخذ القاضي يهز رأسه هزا عنيفا وقد اضطجع في كرسيه وراح يمشط شاربه بأصابعه وهو يتمتم :

– الربيع .. الربيع . تعرف الربيع .. فصل الربيع يعني

ورد الرجل النحيل العجوز ، وقد انكمش وتضاءل وكأنه دخل في جلده :

– أيوه ..
– طيب قوللي يا سيدي الناس بتلبس ايه في الربيع ؟ ..

ولم يتلق القاضي جوابا على سؤاله ..

وبدا على وجه الشاهد انه لم يفهم حرفا واحدا مما نطق به القاضي ..

وعاد القاضي يسأل من جديد :

– الناس بتلبس ايه ياعم .. انت اسمك ايه ؟ ..
– محمد ابراهيم مبروك ..
– أيوه يا عم مبروك .. بيلبسوا ايه فريسكا ولا صوف ؟

وصمت الرجل قليلا ، وكأنه يفكر ثم قال بصوت خفيض :

– بيلبسوا جلبية ..

ورنت ضحكة نسائية خليعة في ركن من أركان المحكمة .. جعلت الشيخ يهتز فوق كرسيه ، وهو ينقر نقرات سريعة بقلمه على المنصة ، ثم عاد الهدوء يلف القاعة ..

وابتسم القاضي قبل أن يسأل الشاهد من جديد :

– بقى بيلبسوا جلبية ؟ ..
– أيوه كده ، وحياة شرفك ..
– طيب يا عم ،وفى الربيع بيســـافروا فين ؟ .. يعنى بيسافروا اسكندرية مثلا ، والا بور سعيد ؟ ..
وهتف الشاهد على الفور ، كأنه اكتشف سرا :
– اسكندرية ..
– متأكد ..
وارتبك الشاهد ، واهتز بشدة وهو يختلس النظر نحو الرجل الواقف الى جواره ، ثم هتف ولسانه المضطرب يخرج من فمه بين الحين والحين :
– بور سعيد ..
وأزاح القاضى عمامته الى الخلف قليلا وسأله فى هدوء :
– يعنى مابيروحوش أسيوط ؟ ..
وأجاب الشاهد على الفور :
– أسيوط !! ..
وضحك الناس ..
وقام بعضهم من المقاعد الخلفية فاحتلوا مكانا فى الأماكن الأمامية .. ودخل قوم غيرهم كانوا يقفون عند الباب فاحتلوا الأماكن الخلفية .. وازدحمت القاعة حتى لم يعد هناك موضع لقدم وعندما هم محامى الزوج بأن يتحدث أشار عليه القاضى بأن يلزم الصمت ، وعاد يسأل الرجـل المذعور كأرنب صـغير مطارد :
وأسيوط دى فى اى حتة ؟ ..
– فى الصعيد ..
– طيب والصعيد فين ؟ ..
وأشار الرجل الى الناحية الشرقية وقال :
– الناحية دى ..
وضج الجميع بالضحك ، وهتف القاضى مسرورا :
– مانا عارف ان الصعيد الناحية دى .. بقولك فين .. يعنى تبع مين ؟ ..
وصمت الشاهد ولم يتكلم ، وتابع القاضى حديثه قائلا :
– تبع مصر .. طيب ومصر تبع مين ؟ ..

ورد الشاهد على الفور :
– تبع ربنا . كلنا تبع ربنا وفى ملكه ، وربنا يخليك .. هو أغنى الأغنياء ..
وعندما ضحك الناس هذه المرة ضحك الشاهد معهم .. وفتح فمه .. فبدا مهجورا واسعا كصحراء مجهولة ، ثم ضرب يده فى فتحة جلبابه ، وراح يحك جنبه بأظافره ، وتحت أبطه .. فنهره القاضى بشدة ، ثم عاود الحديث معه ، ولكن بعد أن أمره برفع صوته ليتمكن الجميع من متابعة المناقشة :
– انت عندك كام سنة يا عم مبروك ؟ ..
– والله مانا عـارف .. أيامنا ماكانش فيـه حاجات زى اليومين دول ..
وساكن فين يا عم مبروك ؟ ..
– فى القلعة ..
– أمال ازاى بتقول ساكن قدامهم وهم قاعدين فى شبرا ؟
واضطرب الشاهد قليلا .. ولم يلبث أن قال :
– ماهو أنا ساكن هنا وهنا ..
– ايه .. بيت صيفى ، وبيت شتوى ..
وابتسم الرجل ولم يتكلم ، واستطرد القاضى :
– بذمتك انت ماجيتش قدامى أول امبارح تشهد ؟ ..
– لا .. وحياة شرفك دنا على قد حالى ونظرى على قدى .. ربنا يحفظ نظرك ..
– مش عيب تبقى راجل شايب وعايب ..
– لا وشرفك .. أنا أعرف الشـــهور كلها والله .. بس لا مؤاخذة .. الهيبة يعنى وحياة شرفك ..
وضجت المحكمة بالضحك ، وضحك معهم محامى الزوج لأول مرة ، وضحك الزوج كذلك حتى الزوجة البائســة انفرجت شفتاها عن ابتسامة باهتة ..
وأشار القاضى الى الشاهد بالخروج فاستدار الرجل وراح يزحف كالدودة فى الممر الضيق الذى يفصـل بين المقاعد وأصابعه تتحرك تحت جلبابه ماسحة ظهره عرضا وطولا فى عرش رتيب .. وجلبابه يزحف على الأرض المبتلة ، وكانت أعناق الناس تتحرك مع الرجل فى نفس الاتجاه ، وعيونهم

تشيعه حتى الباب وهى تتفرس فيه بدهشة .. وراح بعضهم يبدى رأيه فى الرجل بصراحة .. والكلمات تتناثر من كل جانب .. نصاب شايب وعايب .. هم دول سبب الفساد .

وترددت فى جنبات القاعة همسات تبدى رأيها فى القاضى :

متعلم .. وشاطر .. فاهم كويس .. ناصح .. عينه مفتوحة ..

كان الرجل الشيخ يأخذ طريقه الى الخارج وهو لايسمع شيئا من هذا كله .. لم يكن يهمه رأى الناس فيه وكان الشىء الذى يشغل ذهنه هو ضرورة الحصول على نصف جنيه .. لقد تقاضى عشرة قروش من الزوج مقدم أتعابه ، وهو لا يدرى ان كان أحسن أو أخطأ ، وان كان سيستطيع الحصول على بقية المبلغ المتفق عليه أم لا ؟ ..

وعندما أصبح الرجل خارج قاعة الجلسة انحرف ناحية اليسار واختار له مكانا ليجلس بعد أن هدت المناقشة الحامية كيانه وسلبته حيويته ..

ولم يمض وقت طويل حتى خرج الزوج ، ومن خلفه محاميه ، وكانت عصبيته البادية تدل على أنه قد خسر القضية

وعندما وقع نظره على الرجل العجوز نظر اليه فى اشمئزاز واحتقار وبصق فى الفضاء فى اتجاهه ، والدم يكاد ينفجر من عروق جبهته العريضة .. ولسانه يتحرك بسرعة بشتائم لا حصر لها .. يا نصاب يا كذاب يا كلب .. عشرة صاغ يا راجل يا غشاش .. ولم يلبث أن استدار على عقبيه ومضى .

وعندما اختفى الزوج البدين ومن خلفه محاميه أسند الرجل العجوز ظهره الى الحائط وراح ينظر نظرات حائرة بعينيه القطريتين . الى الأفق البعيد ..

سلطان الغرام ..



لم يبق فى مقهى النوبة بشارع أبى السباع سوى ستة زبائن فقط جلسوا متراصين فى خمول وعلى خط مستقيم على باب المقهى وعيونهم جميعا مصوبة نحو أول الشارع تتعقب النساء الجميلات اللاتى يعبرن الطريق فى دلال وتظل عيون الرجال الستة تتعقب كل امرأة حتى تغيب عند المنحنى ..

فتعود العيون الى مكانها عند أول الشارع وكأنها ثعالب صغيرة تتربص فى انتظار فريسة تائهة . وكانت الحركة التى يتعقب بها الرجال قوام الفاتنات تمضى رتيبة هادئة وكأنها تحدث لخطة موضوعة . وكانت كل فترة من هذه الفترات تنتهى دائما باستنكار بالغ يعلنه عبد الرشيد أحد أفراد الجماعة :

ـ موش حاجة ، اسألونى أنا !!

ولم يتم أحد من الحاضرين باستنكار عبد الرشيد الذى كان يبديه فى كل مرة ، ولم يحاول أحد منهم أن يسأله . وكان هو أيضا يكتفى بهذا ، ثم يصوب بصره نحو أول الشارع كما يفعل الآخرون .. ولكنه كان أحيانا ينشغل بعض الوقت باصلاح وضع ساقه الخشبية الممتدة تحت ساقه السليمة على بلاط المقهى المتآكل . والحق ان عبد الرشيد كان بشعا للغاية ، أنف كبير فى حجم عكازه ، وفم واسع ، وشفاه غليظة بعض أطرافها متآكل ، وبشرة وجه كالحة تغطيها الندوب والبثور ، فضلا عن ساقه الخشبية ، ومهنته التى يحتقرها كل رواد مقهى النوبة .. فقد كان عبد الرشيد يبيع الكبريت

بالكويون . ورغم أن الآخرين كانوا من نفس الطبقة الا أنهم فى الحقيقة كانوا أحسن حالا منه بكثير ، فأحدهم فراش فى البنك ، والآخرون خدم فى البيوت . وكانوا جميعا يشعرون فى أعماقهم بالتفوق عليه . وكان هذا الشعور كافيا لعدم اهتمامهم باستنكاره ، وبالتالى الى عدم الاستفسار منه عما يعنيه .

غير أن فترة طويلة مضت عليهم دون أن تمر بهم سيدة ، وشعر البعض بالملل فراحوا يهرشون وهم يتثاءبون ، وراح البعض الآخر يتمطى فى كسل لذيذ . وبقى عبد الرشيد وحده محتفظا بهدوئه ، فلم تبد عليه بادرة ملل على الاطلاق !!

وخطر لأحدهم أن يتسلى فثنى سبابته ، ورفعها الى فمه ، وضغط عليها بأسنانه ، وحدق طويلا فى عبدالرشيد ، وسأله فى تحدى :

ـ النسوان دول موش عاجبينك .. والا ايه ؟ ..

وعلى الفور أجاب عبد الرشيد فى ثقة بالغة :

دول ؟ !! ولا حاجة ، اسألنى أنا ، حاكم أنا برمت كتير ، دى كلها مناظر بس !!

وكأنما بهرت الاجابة الخاطفة أسماع الأربعة الآخرين وكانوا حتى هذه اللحظة يستمعون الى مايدور بين عبدالرشيد وزميله فى فتور ، فاعتدلوا وقد أصاخوا السمع فى انتباه زائد ، وعيونهم تلمع ببريق غريب ، وواصل عبد الرشيد حديثه بنفس الثقة البالغة :

ـ حاكم أنا برمت ، ياما برمت ، وعشان كده المناظر دى مابقتش تغرنى قوى ، لأن الحاجات دى وزدت على كتير !!

ورد واحد من الجالسين ، وهو يقترب بكرسيه من مكان عبد الرشيد :

ـ زمان بقى الكلام ده .. والا ايه ؟ ..

ـ زمان .. ودلوقت !! انا كنت أفضل سهران ليل ونهار ، وكانت الحريم دى غية عندى ، حريم فرنساوى مشيت معاه ، انجليزى مشيت معاه ، تركى مشيت معاه ، كل الملل اللى ربنا خلقها ، ماخلتشى !!

واقترب الرجال الخمسة من عبد الرشيد ، وأحاطوا به فى

شبه دائرة ، وصفق البعض طالبا المشاريب لعبد الرشيد ، وعزم البعض الآخر بالسجائر عليه ، وسأله أحدهم فى عفوية من يود الاهتداء الى الحقيقة :

ـ وبذمتك ياعبد الرشيد ، أى صنف أحسن ؟ ..

وأجاب على الفور واحد من الجالسين :

ـ الحريم الفرنساوى مافيش أحسن منهم ..

وقاطعه عبد الرشيد فى حزم :

ـ أبدا ..

ثم أضاف بعد برهة :

ـ اسألنى أنا ، حاكم اسأل مجرب ، ولا تسأل طبيب ..

وأجاب أحدهم :

ـ ياسلام ، أمال الصنف اللى عجبك ايه ؟ ..

وضيق عبد الرشيد عينيه ، وأرعش حاجبيه ، ووضع ابهامه فى فمه ، وقال فى همس مسموع ، وكأنه يلقى اليهم بسر خطير :

ـ بينى وبينك يعنى ؟ ..

ورد الجميع على الفور :

ـ آه !!

ومضت فترة صمت قصيرة قبل أن يقول عبد الرشيد :

ـ الحبشى !!

وهتف الجميع فى صوت واحد :

ـ ياسلام ، بقى الصنف الحبشى أحسن صنف !

ـ آه .. مافيش منه أبدا ، هوه أجدع حريم ..

وفتح الرجال أفواههم ، ورقصوا حواجبهم وبعضهم قبل الهواء بشفتيه ، ثم هدأوا من جديد ، وراحوا يتساءلون فى نفس واحد :

ـ ياسلام .. ومين تانى ؟ ..

وعلى الفور أجاب عبد الرشيد :

ـ والرومى !!

ولكن أحدهم قاطعه مستنكرا :

ـ الله ؟ .. جرا ايه يامعلم ، انت قلت ان الرومى زفت زى الفرنساوى والانجليزى .

وارتبك عبد الرشيد قليلا ، لكنه تدارك موقفه على الفور .. فقال فى تؤدة وكأنه يشرح أمر غامض خطير :

– ماهو فيه اتنين رومى يابنى آدم ، الرومى اللى جنب اسكندرية ، وده صنف زفت خالص ، والرومى اللى جنب فلسطين وده صنف عال قوى ، زى الحبشى وأحسن !! ..

وصمت الحاضرون وكأنهم اقتنعوا بمنطقه ، وسكت عبد الرشيد هو الآخر ريثما أشعل سيجارة التقطها من علبة كان قد طرحها مفتوحة على المنضدة واحد من الجالسين .

ثم استأنف حديثه قائلا :

– حاكم أنا كنت ماشى مع واحدة رومية ، قعدت معاها ييجى سنة ، وبعدين هربت منها ورحت لواحدة حبشية ، بنت صغار بتاعت خمسة وتلاتين سنة ، وكانت من غير مؤاخذة سحارة تحضر جان وعفاريت ، وانا كان صيتى ضارب قوى بين الحريم ، كنت أى حتة أتوجد فيها يتلموا على زى الدبان ، ماعرفش أحش فيهم ، الغرض واحدة جنية م اللى بتحضرهم الست الحبشية سمعت عنى عرضت على انى اخاويها . قالتلى أجيبلك أكلك ، وسجايرك ، وأعنسك تمام ، قول قبلت !

وقاطعه أحد السامعين مقاطعا :

– وخاويتها ؟ !!

– أمال ! .. ونزلت معاها تحت الأرض . عالم زى هنا بالضبط ، ومسلمين تمام ، قعدت معاها أسبوع ، ناكل أحسن أكل ، ونشرب أحسن شرب وكانت ست فاضلة ، تصوم وتصلى الوقت بوقته ، وبعد أسبوع طلعتنى فوق ، وكل يوم خميس بقت تزورنى ، وكل يوم تجيب معاها قفاطين شاهى وجلاليب جوخ ، وصدف ، وجزم شمواه وشرابات م النايلون ، عشت معاها فى عز ونغنغه .. مافيش بعد كده !!

وتوقف عبد الرشيد قليلا وضرب أصابعه المشوحة فى علبة السجائر ثم انتزع أصابعه خاوية ، والحسرة تبدو على وجهه البشع ، فقد كانت العلبة خالية ، وصفق الحاضرون للجرسون ، وأخرج كل منهم قرشا ، وطلب من الجرسون ثلاثة هونيورد ، وعاد عبد الرشيد الى حديثه مطمئنا الى أن السجائر سوف تحضر بعد قليل :

– عشنا زى الملوك تمام ، مافيش يوم زعلتنى أبدا ، مرة واحدة بس قالتلى ياعبد الرشيد ياخويا اعمل كل حاجة الا انك تخونى ، أو تقول لحد م البنى آدم ، قلتلها عيب ياجنية ! .. وحلفتلها ع العيش والملح . الغرض صدقت ، وفضلت ماشى أنا كويس ييجى سنة ، وبعدين مشيت مع جنية تانيـة ، وجنية تالتة ، ورابعة ، لما بقيت ماشى ييجى مع ميت جنية .

وقاطعه احدهم :

– ولا عرفتش ؟! ..

– أبدا ، دانا كمان كنت قايم بواجباتها مظبوط ، وعشان كده ، حتى لو كانت تعرف كانت لازم تصهين ! ..

– أمال عجرتك ليه ؟ ..

– مانا جايلك فى الكلام . أنا فى الآخر غلطت ، وحاكم لسانك حصانك على رأى المثل ، ولسان البنى آدم يستاهل قطعه . يوم من ذات الأيام قلت لواحد صاحبى ع الحكاية كلها ، وبعد ساعة واحدة لقيتها قدامى مع انه ماكانش ميعاد ظهورها . وقالتلى موش عيب ياعبد الرشيد قلتلها حقك على ياست ، غلطت وسامحينى قالتلى لأ . أنا حذرتك وانت ماسمعتش الكلام . وراحت خبطانى على صدرى .. وكنت بقيت زى الفرخة الدايخة ، ويومها بالذات وقعت تحت الترماى وكل رجلى ..

وهتف الجميع فى صوت واحد :

– لاحول ولا قوة الا بالله . صحيح لسانك حصانك ، مايوديش الواحد فى داهية غير صاحبه ولسانه !!

وعقب عبد الرشيد على هذا بقوله :

– أمال .. اسألنى أنا ، حاكم أنا برمت كتير قوى ..

وسادت فترة صمت طويلة ، والجميع يمصمصون شفاهم ، ويهزون رؤوسهم اسفا على النهاية السيئة التى انتهى اليها عبد الرشيد لأنه فشل فى الاحتفاظ بسره بين ضلوعه . وانتهز عبد الرشيد الفرصة فنادى على الجرسون ، وأمره باحضار واحد شاى على حساب سى محمد ، واحد من الخمسة الذين استمعوا الى القصة . وبعد أن جاء الشاى ورشف منه عبد الرشيد عدة رشفات طويلة .. مال عليه سى محمد

وساله فى همس غير مسموع :
ـ وبتبرم لحد دلوقت ياعبد ... ؟
ورد عبد الرشيد وهو يغمز بعينة :
ـ على خفيف !!
ـ ياسلام ! .. وفيك حيل لسه ؟ ..
وهز عبد الرشيد راسه .. وقال :
ـ الحمد لله ، حاكم الركِ ع الأساس ..
ثم استطرد عبد الرشيد على الفور :
ـ ليه .. انت اياك تعبان ؟!
وتردد سى محمد قليلا قبل أن يجيب على السؤال :
ـ أنا حاكم من سنة كده .. وانا يعنى من غير مؤاخذة .. زى ما يكون الأسياد ماسكنى ..
وقال عبد الرشيد :
ـ أعوذ بالله ، ولا جربتش حاجة ؟!
ـ جربت كتير .. انما مافيش فايدة ..
ـ وجربت ايه ؟ ..
ـ حبوب مافيش فايدة ، أفيون مافيش فايدة ، والحد سوادنى عملى حجاب .. برضه مافيش فايدة .. دخت بعيد عنك !!
وأجاب عبد الرشيد :
ـ لأ ماهى الحاجات دى بينى وبينك ماقيهاش فايدة ، انا حاكم جربتها مانفعتش !! ..
وهتف سى محمد فى اندهاش بالغ :
ـ الله ، هو انت راخر .. من غير مؤاخذة ! ..
وارتبك عبد الرشيد .. وتبدل لون سحنته ، ولكنه هتف على الفور :
ـ لأ .. انا أصلى .. من غير مؤاخذة .. كنت زمان كده .. كام يوم يعنى .. وبعدين كل شىء رجع لأصله !!
وعندما انتهى عبد الرشيد من حديثه .. رفع ذيل جلبابه ليجفف به العرق الذى أخذ يجرى على صفحة وجهه المجدور ، وبدا من حركات عينيه القلقتين انه وقع فى ورطة شديدة ، ولكن صوت ارتفع من جانبه أنقذه فى الوقت المناسب ، وكان

الصوت لأحد الجالسين ينصح سى محمد بوصفة هى خير الوصفات جميعا ..
ـ عليك باللبن الصبح ، وتغليه فى النعناع ، ومعلقة زبدة بقرى ، وتشرب ده بقه ، كل شىء يرجع لأصله .. باذن الله .
وأنصت سى محمد بكل جوارحه الى الوصفة الجديدة ، وكذلك فعل عبد الرشيد ، ولم تمض لحظة حتى غادر سى محمد المقهى وكذلك فعل ثلاثة من الجالسين ، ولم يبق الا عبد الرشيد والآخر الذى نصح سى محمد بالوصفة الفعالة ، وعندما غاب الرجال عند المنحنى فى نهاية الشارع ، مال عبد الرشيد الى الرجل الذى بجواره وساله فى اهتمام بالغ عن الوصفة التى تعيد كل شىء الى ما كان عليه ، وهتف الرجل الآخر فى ضجر شديد :
ـ ماقلتلك ياأخى ، اللبن وتغليه فى النعناع ، ومعلقة زبدة كل يوم الصبح ..
واستند عبد الرشيد بظهره على الكرسى ، ومد ساقه السليمة على بلاط المقهى ، وضرب يده على فخذه بشدة ، ثم رفع يده الأخرى الى فمه وراح يقرض فى اظافرها ثم تمتم بينه وبين نفسه فى حنق شديد :
ـ لبن ونعناع .. وزبدة .. ياخرابى ياجدعان ، دى حاجات غالية كلها ..
ولم يسمع أحد هذا الهمس الذى ردده عبد الرشيد بينه وبين نفسه لأن الرجل الآخر كان قد نهض منذ برهة .. وغاب عند المنحنى !! ..

حامد وحسين ..



عندما عاد حامد الى كفر شارل بعد الظهيرة فى ذلك اليوم من أيام شهر يونية الحارة ، كان كل شيء يجرى فى الكفر كما كان يجرى بالأمس ، وأول أمس ، ومنذ عام مضى ، وخمسة أعوام سابقة أو منذ انشقت الأرض عن كفر شارل فى تلك البقعة خارج مدينة السويس على ربوة عالية ناحية الغرب .

كان الشارع الوحيد فى الكفر قد ازداد طينا عفنا ، وقنوات بقايا الجاز المتخلف عن عملية تكرير البترول فى المعامل الضخمة التى تقع بالقرب من كفر شارل مازال تجرى بما تحمله من جاز له لون أخضر ورائحة خبيثة ، وأطفال كثيرون عرايا مثل القرود يقفزون فى أنحاء الشارع ، ويغوصون بأقدامهم فى الطين ، وفى قنوات الجاز الأخضر ، ويقضمون

بأسنانهم الصفراء المتآكلة شيئا له شكل العيش .. وان كان ليست له خصائصه .

وسرت الراحة فى بدن حامد ، ربما لأول مرة فى حياته منذ أن جاء الى كفر شارل .. فقد آن الآوان أخيرا ليهجره .. وهو ما جاء اليه الآن الا ليأخذ معه ماتبقى له من متاع ، وسوف لا يعود اليه أبدا مهما كان الأمر .. لا زائرا ولا ساكنا .. فكفاه ما لقيه فى كفر شارل من بؤس وفاقة مدى خمسة أعوام كاملة ، وعندما دفع حامد الباب أمامه فى ضجر فانفتح الباب محدثا صوتا مزعجا ، توقف قليلا ليلتقط أنفاسه ، ثم رفع ذيل جلبابه ليمسح العرق الغزير المتدفق على جبهته وصفحة وجهه العريضة . وعندما سار الى الداخل كان زميله فى السكن ، وبلدياته حسين نائما ممددا على الأرض كأنه « فسيخة » ، وعيناه الحادتان الضيقتان كأنهما عينى صقر تحدقان فى الشقوق الكثيرة التى تحتل السقف والجدران ، ولفافة تبغ دنت من نهايتها تستقر بين أصابعه ، ولم يبد الاهتمام على حسين لمقدم حامد ، فهو منذ خمسة أعوام يعود فى نفس الوقت ليرقد على جنبه كالقتيل فلا يستيقظ الا فى المساء، ولكنه هذه المرة جاء فجلس قبالته ومد احدى ساقيه على الأرض وثنى الساق الأخرى ، وأسند ظهره على الحائط الصفيح ، وساد الصمت فترة قصيرة بين الرجلين ضرب حامد يده بعدها فى جيبه فأخرج علبة سجائر كاملة قدمها الى حسين ، وعندما وقعت عينا الآخر على العلبة الكاملة هب من رقدته مذعورا وكأنما لدغه عقرب ، وغاص بأصابعه الخمسة داخل العلبة وانتزع لنفسه واحدة منها ثم عاد الى رقدته من جديد ..

وأعاد حامد العلبة الى جيبه بعد أن أشعل لنفسه سيجارة منها ، وجلس الرجلان يدخنان فى لذة بالغة ، وفجأة قال حسين وهو ينظر طويلا الى السيجارة :

ـ ايه الحكاية .. انت قتلت واحد انجليزى النهارده ؟ ..

ورد حامد فى هدوء :

ـ أبدا .. بس لقيت شغل ..

ومن جديد .. هب حسين جالسا ، وقد اتسعت عيناه ، وبانت الدهشة على وجهه .. وصرخ غير مؤمن بما يسمعه :

ـ شغل .. فين الشغل ده ؟

وقال حامد وهو يجذب نفسا من السيجارة :

ـ عند الريس سليمان ..

وقطب حسين جبهته ، وعض أصبعه بشدة ، وضرب جبهته بصفحة يده ، ونظر الى حامد في ذعر شديد قال وكأنه لا يصدق ما يسمعه :

ـ انت اتجننت والا ايه ؟

وقال حامد بلا مبالاة :

ـ ولا اتجننت ولا حاجة ..

وعاد حسين الى نومته على الأرض ، وراح ينفث دخان سيجارته في فضاء الحجرة الرطب .. ثم قال :

ـ وايه اللي حصل ؟

ـ ولا حاجة ، قابلت الريس النهارده واتفقت معاه ..

ـ بكام ؟ ..

ـ ـ بخمسين قرش في اليوم ..

ـ وليك كام ع الميه ؟ ..

ـ زي الرجالة ..

ـ وان مت ؟

وقال حامد بمنتهى الحزم والشدة :

ـ في ستين ألف داهية ..

ـ طيب والسلاح ..

ـ حاستلمه بكره .. مدفع وميت رصاصة ..

ـ والشغل امتى ؟

ـ بعد بكره بالليل ..

وعاد الصمت من جديد يلف المكان .. لا يعكره شيء الا صوت الأطفال الذين يلعبون عرايا في الشارع الموحل ، ويغوصون بأقدامهم في قنوات المجاري المتعفن .. وجذب حامد

آخر نفس من السيجارة ثم طوح بها الى الخارج .. ومد ساقه الأخرى على الأرض ، ثم خبط عليها بيده .. وسأل حسين في خبث :

ـ وانت رأيك ايه في الشغلة دي ؟

وقال حسين وهو يتقلب على جنبه :

ـ شغله مهببه .. عبد القادر ميت فيها ، وسيد مات فيها ، والواد خليل ضربوه في عينيه مابيشوفش من يومها ، واسماعيل اللي كان زي الفحل مات فيها .. ييجي ميت راجل زينة قوي ماتوا السنة دي من وراء الشغلة المهببة دي ..

وقال حامد بعد فترة قصيرة :

ـ ويعني عاجبك الحال ياحسين ؟

ورد حسين وهو يرفع يده في الهواء ويتثاءب :

ـ أهو أحسن م الموت .. وبكره يمكن تفرج ..

ودس حامد يده تحت جلبابه وراح يهرش في بطنه ، وقد انزل سرواله قليلا عن مكانه ثم هتف في غيظ :

ـ عمرها ماحاتفرج ، كل يوم أسود م التاني ، وهو الشغل للرجالة ع العموم ، ويمكن تصح معانا وتبقى الأشيا عال ..

ورد حسين في صوت حزين :

ـ كانت صحت مع الرجالة كلها اللي ماتوا دول الراجل من دول ان عاش شهرين ورا بعض يبقى حظه بمب .. هوه حد بيتفضل ..

وهتف حامد في ثقة المطمئن :

ـ الأعمار بأمر ربنا ، مفيش حد بيموت ناقص عمر ..

ـ كلام فارغ ده ، هو حد قال ارمي نفسك قدام القطر ، وقول الأعمار بأمر ربنا ..

وكأنما أقنعه حسين بمنطقه فرد حامد محنقا :

ـ طيب وتعمل ايه ، تموت من الجوع يا حسين .. مش خمس ستين دلوقت واحنا مش لاقيين نهرش .. والعيال تلقاهم ماتوا م الجوع في البلد ..

وسكت حامد قليلا ثم أضاف :

ـ طيب والله لو لقيت شغل فى النار لاشتغل ..

ـ وهوه فيه نار أكتر من كده .. دى النار أهون ..

ورد حامد متحديا :

ـ ليه عشان ايه يعنى ؟

ـ انت مش عارف أصل الشغلة ؟

ـ عارف .. راح تسرق مواسير الجيش الانجليزى ..

ـ وعارف المواسير دى كام واحد حارسينها ؟ .

ـ كتير ..

ـ وعارف ماسكين ايه ؟

ـ مدافع ..

ـ طيب .. أمال انت عايز ايه أكتر من ده ..

وقال حامد فى استهتار :

ـ واحنا كمان معانا مدافع ..

وقال حسين فى صوت خافت :

ـ واللى ماتوا كمان كان معاهم ..

ورفع حامد أصابعه الخمسة الى فمه .. وراح يفتل شاربه .. ثم قال فى تحدى :

ـ انت خواف ..

وهب حسين جالسا على ركبتيه وكأنه يصلى .. وقال :

ـ لأ مش خواف ياحامد ، بس أنا ماضيعش عمرى عشان خاطر الريس سليمان ..

ـ والريس سليمان ماله فى الموضوع دا كله ؟

ـ ماله كيف .. مش المكاسب كلها داخله عنده ..

ـ طيب ماهو الرجالة بتاخد عرقها ..

ـ بتاخد ايه يعنى .. خمسين قرش فى اليوم .. وهو ياخد خمسين جنيه .. مش كده ، ولم يرد حامد على حسين .. بل اكتفى بفتل شاربه الضخم ، وعاد حسين الى حديثه قائلا :

ـ مش بقى عنده أربع عمارات فى السويس ، وعنده ميت

فدان فى البلد ، وبيركب عربية زى الذوات ، خد ايه ابراهيم وحسان وسيد اللى ماتوا ، خدت ايه عيالهم .. أنا أعرف حاجة واحدة بس .. اللى يسرق .. يسرق لنفسه عمرك شفت الريس سليمان راح مع الرجالة فى ليلة . أهو قاعد فى المكتب زى الباشوات .. عشرين نفر يروحوا ، يرجعوا عشرة ومعاهم المواسير ، ياخد هوه المواسير وتروح الرجالة فى ستين داهية ، حتى الجثث مابيرضاش يستلميا ..

وسكت حسين عن الكلام وكأنما هدأت ثورته .. ورفع أصبعيه فى الهواء راسما بهما اشارة ، فهم حامد من ورائها انه فى حاجة الى سيجارة وأشعل الرجلان لفافتهما ثم راحا يدخنان من جديد ، وقال حسين فى هدوء هذه المرة ..

ـ وراح تعمل ايه ..

ـ حاحرج من الكفر المهبب ده ..

ـ وتسكن فين ؟

ـ فى السويس ..

ـ والعيال ؟

ـ راح ابعت أجيبهم م البلد ..

ـ ليه ماتخليهم مطرحهم ..

ـ لأ هنا يبقى أحسن ، عشان ان جرى حاجة .. يبقوا ياخدوا حقهم م الريس سليمان ويروحوا البلد تانى ..

وهرش حسين فى ساقه .. وهو يتساءل فى لهفة ..

ـ وخدت فلوس عنه ؟

ـ خمسة جنيه ..

ولمعت عينا حسين بالفرحة ، وتهللت أساريره ، فهو لم يذق شيئا من الطعام منذ ساعات طويلة .. وربما بلغت العشرين ، ومادام حامد قد حصل على هذا المبلغ الكبير من الريس سليمان فسيتناول طعام العشاء حتما .. فحامد شهم وجدع ، والذى يملكه ليس له على الاطلاق . وعندما نهض حامد من مكانه على الأرض فى طريقه الى المدينة ليقضى بعض أموره الهامة ، وليحضر طعام العشاء .. ترك لحسين أربع

لفافات تبغ من علبته الكاملة .. ولكن حسين لم يدخن شيئا منها ، فقد وضعها جميعا في جيبه .. ونام نوما عميقا ..

والحقيقة أن الرجلين رغم صداقتهما الطويلة . فانهما يختلفان عن بعضهما اختلافا كبيرا ، اختلافا يمس الشكل والموضوع معا . فهما صحيح من بلدة واحدة ، وهجر الاثنان قريتهما في وقت واحد تقريبا ، وجاء كل منهما الى مدينة السويس يسعى الى رزقه .. وعملا معا في معسكرات الجيش .. وفي الميناء .. غير أن حامد كان شابا لم يبلغ الثلاثين بعد ، عريض الكتفين .. متوسط الطول قوي مثل الثور ، متوسط الذكاء ، وان كان الطموح لا ينقصه . أما زميله حسين فقد كان رجلا بلغ الأربعين .. وربما تعداها بقليل ، وخط الشيب شعر رأسه وشاربه ، وكان طويلا نحيفا بارز عظام الوجه ، له عينان حادتان ضيقتان كعيني صقر . وكان ذكيا للغاية . وان كان عمره الذي أسرع به نحو الشيخوخة ، والتجارب المريرة التي خاضها قد جعلته أقل طموحا من زميله حامد ولكن الاثنان كانا يلتقيان عند نقطة هامة .. هي لابد من تغيير حياتهما المملة البائسة ، ولعل حامد كان أكثر الرجلين رغبة في احداث هذا التغيير . فهو عندما كانت الحرب قائمة ، وكانت المكاسب كثيرة .. خطر له أن يعيش مثل بقية الناس فشد الرحال الى قريته – بني قيز – وعاد ومعه زوجة شابة ، ثم مضت الحياة بهما طيبة هادئة .. حتى انتهت الحرب .. ثم توالت المتاعب ، ولو كان حامد وحده وقتئذ لما ضره شيء ، ولكن المصيبة كلها أن زوجته كانت تعاني المصائب ، وكذلك ثلاثة أطفال صغار ، وعندما استحكمت حلقات الأزمة حول عنقه الغليظ فكر في الخلاص من الحياة كلها ، فكر في أن يقتل زوجته وأطفاله ثم يقتل نفسه .. فهذا أهون بكثير من ألسنة الناس في بني قيز .. ولكن هذا الخاطر لم ينفذه أبدا ، فقد كان حبه الجارف لهم يغطي على كل شيء .. وأيضا لأن ثمة أمل باهت كان يداعب خياله في أنه آخر الأمر سيجد حلا للمأساة التي يحيا داخلها وذات مساء وضع زوجته وأطفاله في عربة مزدحمة من عربات

الدرجة الثالثة ليعودوا من حيث جاؤوا ، وحمل هو ما تبقى من متاع وجاء الى كفر شارل ، ومن يومها لم يهدأ تفكيره لحظة في ضرورة اعادة عائلته الصغيرة من الصعيد ..

لقد ظل يرسل لهما الخطابات يوما بعد يوم ثم فترت همته قليلا ، وأصبح يرسل الخطابات أسبوعا وراء أسبوع ، ثم تلاشت هذه الهمة نهائيا ، فتوقف عن الكتابة والاتصال .

ولكن حسين لم تكن له عائلة . وربما كانت له ولكنه لم يحدث حامد بأمرها أبدا كان صامتا أبدا يتكلم عند الحاجة ، وحتى كلماته لم تكن تزيد عن شرح الغرض المقصود بها ..

وكان صاحب مزاج ، يدخن كثيرا ، ويزور حلقات الحشيش أحيانا ، ويستحلب الأفيون تحت لسانه كلما حصل على خمسة تعريفة ، وأحيانا . في بعض الأمسيات الحارة وهو جالس مع حامد عند عتبة الباب ، كان حسين يخرج عن صمته فيروي قصصا كثيرة عن مغامراته خلال الحرب مع العساكر الانجليز . وكان يطلق عليهم أوصافا فاجرة . ويحلل أمزجتهم وطريقة حياتهم بأسلوبه الخاص . وكان حسين خلال الحرب على علاقات شاذة بالضباط والجنود الانجليز ، وكان يكسب كثيرا من وراء علاقاته هذه . وكان يبدو فخورا بمسلكه .. فهي علاقات لا تشينه أبدا ، ولكنها تشين الانجليز ، وتمس جوهرهم كرجال . وكان يتحدث دائما عن الضابط الكبير الذي اقتناه في منزله ..

وعاش حسين طويلا في ذلك المنزل لا يعمل شيئا ، يأكل كثيرا .. وينام كثيرا مثل الكلب ويغدق الضابط عليه كثيرا كلما أدى مهمته في الليل على خير وجه ، وكان حسين يؤدي مهمته دائما ، كأحسن ما يكون الشباب قوة ، وبأسا ، ورغبة ، واقبالا على أداء ذلك العمل الغريب ولكن لم تكد عدة شهور تمضي حتى أحس حسين بالتعب يسري في أوصاله ، وبالخمول يسيطر عليه ، وبالضعف الشديد يهد كيانه القوي ولم يعد يستطيع أن يؤدي دوره مع الضابط الانجليزي العجوز . فترك البيت الى الشارع .. ولكن بعد أن كان السل قد أنشب

اظافره فيه ، ومع أن حسين قد استطاع أن يوقف حدة المرض .. بل وكاد يقضى عليه ، الا انه لايزال يحس بالضعف والخمول .. ولعل ذلك هو السبب الحقيقى فى صمته وعزوفه عن الكلام .. وان كان فى الوقت نفسه لا يفتأ يردد ـ كلما سنحت فرصة ـ عن استعداده الكامل للقيام بأى عمل .. نعم أى عمل يعرض عليه فى سبيل أن يخلق لنفسه حياة أفضل .. من هذه الحياة التى يعيشها فى كفر شارل ..

كان المساء قد جاء عندما فتح حسين عينيه ، ولم يكن حامد قد عاد بعد من المدينة ، ونهض حسين متثاقلا وخمانا ، والنوم يكبس على عينيه ، والعرق يبلل هدومه ، ورأســـه تدور من الوهن والجوع .. وفى صعوبة شديدة راح حسين يزحف على قدميه خارجا عند العتبة .. كانت السماء صـــافية تماما ، والنجوم تلمع فى الأفق والصحراء التى تحيط بالربوة ساكنة هادئة . بعض أجزائها البعيدة تشع نورا مصدره معسكرات الانجليز المتناثرة هنا وهناك .. وأيام العز كان حسين يعمل هناك ، وكان ينام هناك أيضا .. ولم يخل جيبه أبدا طول ذلك الوقت من النقود والسجاير .. ليتها ماتوقفت تلك الحرب التى كانت السبب فى هجرته الى هنا ، ثم كانت السبب آخر الأمر فى لجوئه الى كفر شارل لينضم الى القطيع البائس الذى يحيا هنا بلا غاية وبلا أمل .. وهو ليس مثل الناس الذين يحيون فى كفر شارل .. فهؤلاء لم يجربوا الحياة أبدا ، بل كانت حياتهم أبدا محدودة وبائسة ، سواء الذين يعمل منهم فى شركات الجاز ، أو الذين يعملون أنفارا عند المقاولين .. ولكنه هو خبر الحياة وذاق حلاوتها كما لم يتذوقها أحد مثله .. وعاشر الانجليز سبعة أعوام كاملة وأكل معهم ، وحضر سهراتهم ، وذاق الويسكى وتعلم لغتهم أيضا أيضا ، وكان ينفق فى بعض الليالى ما لا يحلم به رجل فى كفر شارل عشرة أعوام ..

وتوقف عقل حسين عن السرحان فى الماضى الذى كان متوردا وجميلا ، وراح ينظر فيما حوله مدققا النظر فى عشش الصفيح

القائمة هنا وهناك .. حامد معه حق فى قبول الشغلانة مادام سيترك هذا القبر .. مادام سيسكن فى المدينة مثل الأفندية المستوظفين . وكفر شارل هذا ليس قرية ، وليس بلدا وليس مكانا على الاطلاق .. وهو منذ خمسة أعوام فقط لم يكن له وجود فى هذا المكان ، ثم عندما وقفت الأزمة ، وطحنت البطالة نفوس الناس وآمالهم ، خرج العمال جماعات الى خارج المدينة يبحثون لهم عن مأوى ، وفوق ربوة مرتفعة نوعا ما عن مسطح الصحراء ، اقام هؤلاء العاطلون عدة بيوت من الصفيح فى صفين طويلين يخترقهما شارع واحد ..

ولم تكن البيوت التى اقامها العمال بيوتا بالمعنى الصحيح بل كلها شيدت من الصفيح القديم الذى باعته سلطات الجيش الانجليزى لعدم حاجتها اليه ، ولا تزال بعض اجزائه تحمل الشارات والعلامات المميزة له ، كالصليب الأحمر ، وماركات العربات المعروفة وغيرها ..

وسكان كفر شارل .. لا يملكون البيوت هناك ، وان كانوا يملكون الصفيح فهى ملك لخواجا يدعى شارل لايعرفه الأهالى ولم تقع عليه أعينهم مرة واحدة ، وان كان وكيله المصرى دائم المرور عليهم مرة أول كل شهر لتحصيل الايجار منهم .. وكان عادة لا يزيد عن خمسة قروش فى الشهر للمتر الواحد .. وكل بيت فى كفر شارل لا تزيد مساحته على ستة أمتار .. وسكان الكفر هم غالبا من العمال المفصولين من شركات البترول ، أو الذين كانوا يعملون فى الميناء خلال الحرب ، ثم وجدوا أنفسهم فجأة ـ بعد الحرب ـ بلا عمل فى الميناء ، وبعضهما يعمل فى خدمة الجيش الانجليزى عن طريق المقاولين .. أى أنهم يعملون يوما ولا يجدون العمل أياما .. وحتى اليوم الذى يجدون فيه عملا فانهم لا يتقاضون عليه أجرا كبيرا .. لأن المقاول يستولى على الأجر كله .. ويتصدق على العمال بالقليل .. ولكن رغم ذلك .. فقد كانت الحياة تمضى هادئة فى كفر شارل وفى خلال الخمسة سنوات التى تلت الحرب لم تقع جريمة قتل واحدة ، وكذلك لم تقع حادثة سرقة من أى نوع .. اذ ليس

فى كفر شارل شيئا يسرقه اللصوص ، وحتى السخطلم يكن يجد طريقه ليتسلل الى قلوب الناس .. فقد تعودوا الحياة هناك وألفوها وظنوا أنها قدرا مقسوما عليهم ولا سبيل الى الفكاك منها بأية حال ..

ولكن حسين ليس مثل هؤلاء الناس أبدا ، انه شىء آخر ولابد أن يظل كذلك ، هو يخشى الآن على نفسه من الموت .. فهو يحس احساسا صادقا بأن روحه قد ماتت ، ولم يبق عليه ليكون جثة الا أن يموت جسمه كذلك ، وراح حسين يمسح بكف يده جسمه من الداخل محاولا تجفيف العرق الذى يؤله ويجعله راغبا فى الهرش على الدوام . وقبل أن ينزع يده من تحت جلبابه .. لمح شبح حامد يصعد الهضبة وبين يديه تكدست أوراق ولفافات ضخمة .. لقد صدق حدسه .. وها هو حامد يعود ومعه طعام كثير .. وعندما أصبح الرجلان فى مواجهة بعضهما . وقف حسين على قدميه ومد يده تحمل شيئا من الأوراق الملفوفة .. ودخلا على الفور .. وتناولا طعام العشاء فى صمت ، كانت تلك هى الليلة الأخيرة التى سيقضيانها سويا .. ولذلك كانت بمثابة حفلة وداع .. ورغم أن حامد كان يتصنع السرور أحيانا الا أن مسحة من الكآبة والوحشة كانت تخيم على جو المكان ، وبعد أن فرغا من عشائهما جلس الرجلان يعدان الشاى فى كوز صدىء من الصفيح .. كان أصلا علبة بولوبيف ..

وعندما كان الشاى يغلى داخل الكوز سأل حسين حامدفى اشفاق :

ـ خلاص نويت ..

وأجاب حامد فى هدوء أشد :

ـ ان شاء الله ..

ولم يزد الرجلان على ذلك حرفا ..

وعندما انتهيا من اعداد الشاى .. راحا يرتشفانه على عجل ، ويدخنان السجائر فى لذة مشوبة بالقلق وعندما أتت النار على السجائر ، ألقيا بها الى الخارج ، ثم نهض حامد نصف

٥٤

قومة ، وعد بوزه فأطفأ المصباح ، وتمدد كل منهما فى جانب .. وراحا يستعدان لنوم عميق ..

ولكن صوتا ارتفع وسط السكون والظلام المطبق عليهما .. وكان صوت حسين يسأل فى خوف واشفاق :

ـ انت رايح بكره للريس سليمان ؟

ـ أيوه ..

ـ الساعة كام ؟

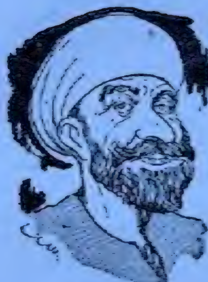
ـ الساعة سبعة ..

وتقلب حسين على الحصير الممزق المفروش على الأرض .. وقال بنفس الصوت الخافت الحزين :

ـ طيب أنا رايح معاك بكره ..

وأطبق الصمت من جديد .. وهبت نسمة خفيفة فأغلقت النافذة المفتوحة أعلا الجدار .. وتضاعفت الظلمة وساد المكان رهبة رهيبة .. ثم ماليث الرجلان أن غرقا فى نوم عميق ..

ياعزيز ..



ازدانت القــرية فى ذلك الصباح وشغلت نفسها بالحديث عن القادم اليها .. هذا البيه الدكتور الذى يعرف كل شئ . وفى رأسه علم الدنيا . والذى شرب العلم من بلاده ، وعندما كان فى بلاد بره ، حتى فاق أهل بره علما وفنا !! ..

ومن فى الدنيــا لا يعرف الدكتور شريف ، ده متعلم فى امريكا يا جدعان وشارب العلم عن بز أمه » ..

هكذا أكد شندى لأهل القرية وهو يتحــدث عن البيه الدكتور الذى سيشرف القرية فى المساء ليتحدث الى الفلاحين عن كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية .. موضوع المحاضرة كما كتب على تذاكر الدعوة التى وزعها عضو مجلس الشيوخ على كبار المزارعين والأعيان ..

ولكن الفلاحين الغلابا لم تصل اليهم دعوات لحضور المحاضرة اكتفى العمدة بالمرور عليهم فى بيوتهم فى موكب مهيب من الخفراء وشيخ الخفر ، وشيخ البلد ، ونبه على كل منهم ألا يتأخر فى الحضور الى المركز الاجتماعى حتى لا تفوته محاضرة الدكتور، لم ينس العمدة أن يخبرهم وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه أن البيه المأمور سيشرف الحفلة ..

ولم يعد هناك حديث للفلاحين الا البيه الدكتور والمحاضرة .

وراح كل منهم يرسم بخياله الواسع صورة للدكتور المتعلم بره .. فى أمريكا ، والذى فاق أهل بره علما وفنا ..

– ولكن .. ما هى الثروة الحيوانية دى يا جدعان ..

هكذا تساءل أحمد البديوى ريس أنفار الدودة فى عزبة العمدة ، وسارع محمد أفندى المدرس الالزامى بالرد عليه

– الثروة الحيوانية يابهيم ماتعرفهاش ..

وضحك أحمد البديوى حتى استلقى على قفاه ، وقال وهو يلهث من شدة استغراقه فى الضحك ..

– يعنى هوه أبويا كان ودانى الجامعة ..

وضرب محمد أفندى كفا بكف وهو يلعن أبو البهايم .. ويزوم مثل كلب جريح ..

– بقى فيه حد لسه مايعرفش الثروة الحيوانية ياجدعان وعايشين فى الدنيــا تعملوا ايه بالذمة . الثروة الحيوانية ياحيوان يعنى يعنى بدل مايبقى عندك جاموسة تبقى عندك جاموستين ..

ورد احمد البديوى على الفور :

– طيب ويبقى عنــدك جاموســتين ازاى وأنا ماعنديش فلوس . هوه أنا لاقى أهرش ..

وضيق محمد أفندى مابين حاجبيه وعينيه . وراح يخلع بأظافر يده ، أظافر قدمه ، وقال فى هدوء بالغ :

– أهو ده اللى حتعرفوا النهارده فى المحاضرة ..

ثم أضاف بعد فترة صمت طويلة :

– حاكم البلاد كلها راح تشوف التمدن ، وبلدنا دى مكتوب عليها الفقر ، طول مافيها بهايم زى احمد البديوى .

وأثارت العبارة الأخيرة احمد البديوى فزعق على الفور :

– جرا ايه يامحمد أفندى ، احنا يعنى غلطنا فى البخارى ، هو ده اسمه كلام برضه ؛ بقى يعنى حلب البقرة عاوز محاظرة

وضحك محمد أفندى طويلا ، وقال وهو يهز رأسه بشدة :

– محاضرة يابهيم .. مش محاظرة .

– أنا عارفلك بقى .. أهو محاظرة زى محاضرة ..

ونهض محمد أفندى ، وقبض بيده على حفنة تراب وهو ينهض متثاقلا ، ألقى بها على رأس البديوى ، وهو يقول ضاحكا :

– ياراجل روح شوفلك تربة ، قبل الموت مايغلى . وقال البديوى دون أن يتحرك :

– أهو الموت جى .. يعنى هوه احنا راح نخلل ..

وعندما ابتعد محمد أفندى عن الجمع المحتشد عند دكان وتجث ، تساءل ابراهيم عطوة فى خوف شديد :

– هوه الدكتور اللى جى الليلة راح يكشف ع البهايم ..

وهرش البديوى فى قفاه .. قبل أن يقول :

– حد عارفلهم حاجة ..

وقال ابراهيم عطوة بحذر :

– حاكم البهيمة بتاعتنا عيانة قلت اخبيها عنا والا عنا .

وارتفع صوت من وسط الجلسة يقول :

– خبيها برضه أحسن ، ماحدش عارف ايه اللى راح يجرا

وفى المساء كان المركز الاجتماعى يسبح فى الضوء ، ويموج بالمئات الذين توافدوا اليه من أنحاء القرية والقرى المجاورة . وكان عساكر البوليس يضربون حوله نطاقا ، وثمة صوت مزعج يصرخ فى الميكرفون لتجربته قبل بدء الحفلة . ولم يكن بين الجمع الحاشد واحد من الأعيان اللهم الا عبد الرسول شحاته وهو يملك عشرة أفدنة لا غير ، ومع ذلك أصر على الجلوس فوق الكراسى القطيفة ، ورفض أن يتلحلح من فوق الكرسى ولو اضطره الأمر الى ارتكاب جناية !

وبعد قليل أقبل المأمور ومعه الدكتور شريف وبعض الأفندية ، فافسح الناس لهم طريقا .. وسرعان ما اتخذ الجميع مجلسهم فى الصف الأمامى ، وأصر المأمور على الا يجلس قبل أن يجلس عضو الشيوخ والدكتور أولا ..

كان الدكتور شابا فى الثلاثين من عمره يرتدى بدلة حريرية بيضاء ، ويلبس نظارة سوداء رغم أن الشمس كانت قد اختفت منذ ساعات ، ويبدو نحيفا خفيفا كأنه ريشة حمامة بيضاء ..

وهمس الفلاحون بأن العلم هو الذى سلبه حيويته ونضارته وأكل شبابه ، وانه لولا العلم لكان مثل طور الوسية ، أو مثل احمد البديوى على الأقل ..

وعندما انتهى المقرىء من التلاوة ، قام الدكتور فى خفة ووقف أمام الميكرفون ، وبعد أن تنحنح وشرب شفطة ماء واحدة قال فى صوت جميل ، وعبارات واضحة :

– أيها الفلاحون الزملاء . السلام عليكم ورحمة الله .

ورد الجالسون جميعا وفى وقت واحد :

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

ولكن يبدو أن الدكتور لم يكن ينتظر ردا منهم فاسرع مواصلا حديثه على الفور :

– ان موضوع الساعة هو كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية ، وسأتحدث اليكم بعد خبرة خمسة عشر عاما قضيتها فى أمريكا ..

فأولا لكى تحلب البقرة يجب أن يتم حلبها فى مكان نظيف مدهون بطلاء أبيض لاراحة أعصاب البقرة ..

وثانيا يجب أن تتم عملية الحلب بواسطة خبير فى هذه العملية ويستحسن أن يكون مرتديا قفازا من الجلد الناعم ، وجلبابا أبيض معقما فى درجة حرارة أربعين مئوية ، ويجب وضع كمامة على الأنف أثناء عملية الحلب حتى لا يتلوث الحليب بالميكروبات المختلفة ..

والى هذه اللحظة كان الجميع صامتين .. ولا حركة . ولكن أبو سويلم الخفير .. هتف فى اذن جاره :

– همه راح يفرقوا علينا كمامات ، هيه الحرب قامت والا ايه ياجدعان ؟ !!

ولم يدر أبو سويلم الا وصف طويل أمامه يضحك بصوت عال . كان يجلس فى الصف معاون المستشفى ، وموظف البوستة . ولم يسكتوا الا عندما التفت المأمور الى الخلف .. فعاد الصمت من جديد يخيم على الصالة ، وعاد الدكتور الى حديثه قائلا :

ـ ولكى يكون اللبن مفيدا ومحتفظا بكافة المواد الغذائية يجب حفظه فى أوان من المعدن ، ويلاحظ تعقيمها قبل وضع اللبن فيها • كما يجب معاملة البقرة قبل عملية الحلب معاملة حسنة بحيث لا تتوتر أعصابها فتفسد اللبن ، ويصبح غير صالح للاستعمال ••

وصمت الدكتور قليلا ريثما تناول شفطة أخرى من كوب الماء التى أمامه ثم تناول منديله الحريرى ومسح به نظارته السوداء ، ثم أعادها كما كانت وضرب بيده على المائدة •• وقال فى صوت جميل •

ـ واذا اتبعتم هذه النصائح فسيزيد مقدار اللبن ، وسيصبح فى مقدور البقرة أن تلد ولادة سهلة وميسورة ، وسيزيد وزنها حتما بفعل الراحة والمعاملة الحسنة ••

وفجأة قفز من بين الجالسين شيخ عجوز فى السبعين من عمره ، وسأل فى لهفة :

ـ ياسيدى الدكتور ، احنا راح نستلم البقرة امتى ؟ ••

وضربت لخمة مع الدكتور فلم يدر كيف يجيب على سؤال العجوز • ولكنه بعد فترة رد على سؤاله بسؤال آخر :

ـ بقرة إيه ؟ ••

ـ البقرة اللى احنا راح نعاملها كويس ••

وابتسم الدكتور ابتسامة هادئة وأجابه :

ـ البقرة اللى عندك ••

وقال العجوز :

ـ أنا معنديش بقرة !!

وارتسمت علامات الوقار على وجه الدكتور وقال :

ـ لكن احنا بنتكلم عن اللى عندهم بقرة ••

وغاظت الصالة وارتفع الهمس بين الفلاحين • واحنا ماعندناش بقر ، واللى عنده حتة جاموسة عامل أبو على •• والنبى يخيب خيبتك اللى ما يقول يا عزيز •• يا عزيز ! ••

ولم تفلح التفاتة المأمور هذه المرة فى اعادة السكون فاضطر الى أن يرفع صوته « هص •• هص » ••

وسكت الناس من جديد • غير أن الضجيج عاد عندما

بدأوا يخرجون من الصالة ، خرج الرجل العجوز أولا ، وتبعه أبو سويلم الخفير ، وخرج خلفه احمد البديوى ، وقصار الاقرع •• وتسلل العشرات خلفهم الى الخارج ، وعندما انتهى الدكتور من محاضرته لم يكن موجودا هناك سوى محمد أفندى ، ومعاون البوسطة ، ومعاون المستشفى والعمدة ، وعبدالرسول شحاته ، فقد كان قرب المسافة بينه وبين المأمور يغريه بالبقاء

وعندما انتهى الدكتور من محاضرته • صافح المأمور أولا ، ثم مد يده فصافح بقية الموجودين • وعند الباب الخارجى ، تقدم محمد أفندى اليه فأشاد بالخطبة وموضوعها ، وبعلم الدكتور العزيز ، ولم ينس أن يشيد بفضل البيه المأمور فى استتباب الأمن والنظام فى دائرة المركز ••

وقال وهو يصلح من شأنه جاكتته الكالحة :

ـ ماتزعلش من أهل بلدنا يادكتور • حاكم دول ناس بهايم !!

وقال الدكتور فى هدوء ، وشبح ابتسامة طيبة ترتسم على شفتيه :

ـ لا أبدا ، دول ناس طيبين ••

وسحب المأمور من يده ، ودخلا العربة ثم مالبثت العربة أن تحركت ، وغابت بهما عن الأنظار ••

وعندما مرت العربة على الجسر ، وتورها يكشف لها الطريق الى مسافة بعيدة ، وزوبعة من الغبار تلاحقها على الطريق • عنف الفلاحون الذين يجلسون على حرف الترعة فى كسل لذيذ :

ـ دا الدكتور أهه ياجدعان ••

وقال أبو سويلم على الفور :

ـ يخيب خيبتك اللى مايقول ياعزيز ••

ورد الجميع فى صوت واحد :

ـ ياعزيز !! ••

قلش معسكر !..



لم يعد هنـــاك مكان لأكل العيش فى الدبل (الجبـل) يافرحان . فقد هجـره الذين كانوا يقدمون العيش للنـاس ، والدبل يبدو الآن موحشا وكئيبا .. لا صوت ولا حركة .. ولا حتى عواء ذئب ضال .. ويبدو أن الذئاب هجرته أيضا ، بعد أن تركه الخواجات الانجليز ! ..

وأيام الانجليز يافرحان كانت الحياة سهلة وطرية والنقود كثيرة مثل مياه النيل وقت الفيضان ، وكانت الأشغال على قفا من يشيل ..

ولكن الأفندية التلاميـذ عملوا ثورة وأخرجوا الانجليز . وهو معه الآن مائة جنيه ثمن عرقه وجهده عند الانجليز لمدة عشرة أعوام طويلة مرت عليه وهو يعيش وحيدا فى القنال .. داخل خيمة مثل العساكر الانجليز .. يحمل الطوب والدبش ، والذخيرة ، ويأكل العيش الفينو ، والبولوبيف ، ويشرب البيرة أحيانا .. وهو يذكر الآن ان رأسه دارت أكثر من مرة فى بعض الليالى التى كان يفرط فيها فى الشراب ..

ورفع حسـان راحة يده فمسح بها على عينه الممسـوحة ، وعض على شفته السفلى فى حزن دفين .. وشرد ببصر عينه الأخرى السليمة الى الصحراء العريضـــة الممتدة أمامه من نافذة العربة التى كان يركبها فى طريقه إلى التل الكبير ..

وعندما نفخ الكمسارى فى صفارته ، توقفت العربة قليلا ، وكان فرحان يود لو يستطيع أن يشرب زجاجة قازوزة . ولكن الكمسارى الغليظ نهره بشدة ، ورفض أن ينتظره برهة .. وطوى فرحان ضلوعه على أمنيته .. واستسلم للمصير ..

وعندما انطلقت العربة به على الطريق .. ذكرته معالمه الثابتة بأول يوم جاء فيه إلى القنال بحثا عن الرزق . وهاربا

أيضا عن الجوع الذى لوى مصرانه فى قريته دراو فى أقاصى الصعيد ..

انها نفس الصحراء ، ولكنها اليوم خالية ، وكانت من قبل تشغى بالجنود الانجليز ، وفى هذا المكان بالذات التى تنطلق أمامه العربة ، كان يعمل فيه تسعة أعوام خفيرا للبوابة ، يحمل عصاه على كتفه ، ويأمر العمال الخارجين بالتزام الهدوء ، ويفتشهم أحيانا ، ويسوق بعضهم أمامه الى مكتب البوليس الانجليزى ، ويقضى وقتا ممتعا مع الجاويش جون .. فى سؤال وجواب ..

كانت مهنة جميلة ، ولها سلطة ، ولها أيضا امتيازات ، فهو لم يكن أحد يفتشه ، وكان يحشو جيوبه كل مساء بعلب السجاير والسردين والعيش الفينو . وتنقل من بوابة الى بوابة .. ووصل أجره فى نهاية الأمر الى عشرة جنيهات كاملة .. أملة لم يكن يحلم بها .. مثل الأفندية المستوظفين ..

وعاد فرحان يرمش بعينه الممسوحة ، فقرب يده فى جيبه وأخرج منديله المحلاوى الكبير ، فمسحها به ، ثم أطبق على المنديل بأسنانه . وانحنى تحت الكرسى يبحث عن الشوال الذى معه ، والذى تعهد اخفاءه حتى لا يقع عليه نظر الكمسارى .. فيغرمه مبلغا آخر ، أو يحرمه من الركوب ..

واطمأنت نفس فرحان عندما وجد الشوال فى مكانه لم يمسسه سوء ، فاعتدل فى جلسته ، وان كان قد ظل ممسكا بالمنديل تحت أسنانه ، وعينه السليمة يسرحها عبر الفضاء البعيد ..

كانت الشمس على وشك أن تغطس عند الأفق ، وقرصها المستدير يبدو من خلف أشجار النخيل وكثبان الرمل المترامية على صفحة الصحراء ، وكأنه ركية نار يتدفأ بها بعض الصعايدة الغلاب فى حقول الصعيد ..

وأرعش المنظر نفسه ، فقد حدث كل شىء فى مثل هذا الوقت منذ أربعة أعوام مضت .. عند بوابة معسكر قنارة . وكان فرحان جالسا عند الباب وعصاه الشوم الغليظة فى يده ،

والسيجارة البحارى فى فمه ، وجلبابه نظيف ، وعمامته مرتبة ، وحذاءه يلمع ، وكل شىء معلن .. والحال يسير فى طريقه المضبوط ..

وكان فرحان قد فرغ لتوه من تفتيش العمال ، والمزاح مع بعض الجنود الانجليز الذين كانت تربطه بهم صلاة قديمة . ولم يكن أمامه عمل . فالانجليز كلهم داخل المعسكر .. والأوامر التى لديه ألا يدع أحدا يدخل أو يخرج بعد الخامسة مساء .. وعسكرى البوليس الحربى الانجليزى .. يقف خلفه عند الكشك المدهون باللون الأحمر الزاعق ، والذى كان يأوى اليه فرحان أحيانا عندما تكون الشمس حامية فى شهور الصيف ..

ولكن عسكرى البوليس الحربى هتف بعد قليل :

ـ فرحان .. اسمه ، اسمع ، انته شوفتى كويس أنا موش مزبوت شوية ، أنا شوفتى كتيف ..

وفرحان يجيد هذه اللغة ويحذقها ، وهو أحيانا يشعر بالغرور بينه وبين نفسه لأنه يجيد الانجليزية ويعلق حب الانجليز له لهذا السبب وحده لا غير ، وهو يطلق على الصعايدة زملاءه لقب ، طلاينة ، لأنهم لا يعرفون الانجليزية مثله ولا يستطيعون التفاهم مثله مع الخواجات الانجليز ..

ولذلك هب واقفا على الفور .. ورد على عسكرى البوليس الحربى :

ـ انت مزبوط كتير يا انجلش - انته شوفتى كتيف ، أنا شوفتى بوابة .. يعديق كله ييجى تمام جود ، فرى جود ..

واستدار العسكرى الانجليزى وانصرف ، وأصبح فرحان هو الحاكم المطلق للبوابة .. وأمره ينفذ على المصريين والعساكر الانجليز ..

وحظ فرحان اسود مثل الزفت ، لأن العسكرى الانجليزى الوحيد الذى كان متغيبا خارج المعسكر اختار هذا الوقت بالذات لعودته ..

ولكن فرحان لا يمكن أن يترك هذه الفرصة تمر دون أن

يمارس سلطته ، ومن سلطته أن يمنع هـذا الانجليزى من الدخول ..

وعندما هم العسكرى بالدخول ، اعترض طريقه فرحان :

ـ نو دخول ياجورج ، هيه ايه الحكاية ، الخبر ايه معاك ..

.. نو .. فتش معسكر ..

ولم يتبين العسكرى الانجليزى غرض فرحان فى بادىء الأمر . فاستفسر منه عن الحكاية ، فأعاد عليه فرحان نص محاضرته ، ابتداء من نو دخول ، الى فتش معسكر . وفهم العسكرى الانجليزى فى نهاية الأمر ، فأشاح بذراعه فى وجه فرحان ، وهتف فى وجهه صارخا :

ـ يالله .. نو جود .. بلادى فول ..

وتراجع فرحان قليلا الى الخلف : فقد كان يعلم بالتجربة أن الانجليز لا أمان عندهم ، وان العسـكرى قد يقاتله فجأة وبلا سابق انذار ..

وتوقف فرحان بعيدا عن العسكرى ، وشوح له بيده فى الهواء ، وقال فى حدة ، وفى لهجة الأمر :

ـ نو دخول يعنى نو دخول . جون .. امشى .. يالله .. نو معسكر .. فتش معسكر . انته تنتيحة والا ايه ..

وضرب العسـكرى الانجليزى يده فى جيبه فاخرج مطواة طويلة ولامعـة . وارتبك فرحان فلم يدر ماذا يفعـل . ان الانجليز مجانين ، وهم أشد جنونا عندما يكونون سكارى ، والعسـكرى الذى أمامه سـكران طينة ، ولابد أنه سيقاتل ، والقتال معناه أن يقتل فرحان الجندى أو يقتله الجندى .. وهما أمران أحلاهما مر ..

وفـكر فرحان فى طريقة لتهويش العسـكرى .. وفـكر بسرعة ، واهتدى الى أمر . ورفع عصاه الشوم فوق رأسـه وهدد العسكرى الانجليزى ..

ـ جون .. يالله ..

ولمعت عينا العسكرى الانجليزى بالجنون . ووقف وقفة استعداد وتحدى ، وسأل فرحان فى لهجة هادئة :

ـ يو فايت .. فايت ؟

وقال فرحان وكأنه يتراجع :

ـ نو فايت ، جون ، يالله ..

وأعاد العسكرى سؤاله :

ـ يو فايت ..

وقبل أن يفكر فرحان فى جواب ، هجم العسكرى عليه ، وضربه بالمطواة فى عينه الشمال ، ولم يفق فرحان الا وعسكرى البوليس الانجليزى الذى كان قد عهد اليه بحراسة البوابة يحمله بين يديه ليضعه فى عربة الاسعاف ..

وعندما أصبح فرحان داخل العربة أتيح له أن يتبين كل شىء . انه فى عربة اسعاف انجليزية ، لأن اللغة التى يتكلم بها الذين من حوله داخل العربة لغة لايفهمها . ورأسه تكاد تنفجر من شدة الصداع ، وعظام وجهه تكاد تنسحق لهـول الألم الذى يحسه ، وجسـمه كله ثقيل ومريض وكأنه دبابة ثقيلة تهرسه وتسوى به التراب ..

وهو يريد أن يبكى ، أن يصرخ ، أن يجرى ، ولكنها أمنيات كلها ، وهو يشعر أنه لا يقوى على تنفيذ شىء منها على الاطلاق

وأحس آلاما شديدة تكاد تفقده عقله فى عينه الشمال ، وعندما رفع يده الى عينه ، نهره العسكرى الانجليزى الذى كان يجلس بجانبه داخل العربة ، ولكنه استطاع رغم ذلك أن يرفع عينه الى وجهه ..

وعنـدما نظر اليها بعينه اليمنى اكتشـف ان راحـة يده وأصابعه مخضبة بالدم ، ورجح أن يكون العسكرى السكران قد ضربه بالمطواة فى وجهه ، فشق له جلد خده الشمال .

وعندما استيقظ فرحان من غيبوبته بعد ذلك بأيام وجـد نفسه داخل مستشفى انجليزى ، وستات خواجات سساتر كلهن يحمن فى أرجاء العنبر الكبير ، والمرضى كلهم انجليز ، واكتشف فى نفس الوقت أن المطوة التى رآها فى يد الجندى نفذت فى عنه الشـمال ، وانه أصبح بعين واحـدة ، وعينه الأخرى أصبحت ممسوحة .. ولا حول ولا قوة الا بالله ..

كان المساء قد هبط على الكون ، عندما أضيئت أنوار العربة من الداخل ، فأزعجت فرحان ، وانتزعته من خواطره ، وحاول أن يتبين شيئا من نافذة العربة ولكنه لم يستطع ، فمال على جاره يسأله عن المدى الذى وصلوا اليه ؟ وعندئذ علم انهم وصلوا الى ضواحى القاهرة ، ولم يبق الا دقائق ليدخلوا المدينة الكبيرة التى لم ترها عينه منذ خمسة أعوام ..

وبعد قليل وصلت العربة ، ونزل فرحان واتجه الى أقرب لوكاندة فى شارع كلوت بك . وكان يود أن يبيت ليلته فى نفس اللوكاندة التى نزل فيها أول ليلة جاء فيها الى القاهرة .. فى طريقه الى القنال . غير أن التعب الذى لقيه من رجرجة العربة والذى هد جسمه جعله يؤثر المبيت فى أول لوكاندة صادفها . فهو لم يمكث بها طويلا . بل سيأخذ قطار الظهر الى الصعيد ..

وعندما استيقظ فى الصباح وحمل شواله على كتفه وخرج الى الشارع بهرته الزينات المقامة على جانبى الطرق ، والالوف التى تموج بها الشوارع والانوار المضاءة رغم طلوع النهار ، وسأل فرحان عن السبب .. فعلم أن اليوم عيد الجلاء .. وان الناس تحتفل كلها باليوم ..

اذن من أجل خروج الانجليز يحتفل الناس ؟ .. وهل يفرح الناس فى المدينة لخروج الانجليز ؟ انه كان عند الانجليز وشيعهم وهم يخرجون ، ولكنه لا يفرح ولا يظن أن سيفعل ذلك . ومضى فرحان فى طريقه الى محطة السكة الحديد ولكنه لم يفلح رغم المحاولات العديدة التى بذلها على اجتياز ميدان المحطة . كانت الجماهير الحاشدة على الصفين تضرب جدارا فولاذيا يصعب اختراقه . فاضطر الى الوقوف خلف الصف فى انتظار فرصة تسنح له فيعبر الطريق ..

ولكن الفرصة لم تسنح أبدا . ثم فجأة سمع طبولا وأحذية تدق الطريق ، وصفوف من الجنود يجتازون الطريق ، ودبابات تكركر ، ومدافع تستعرض قوتها ، وطائرات تنثر فى الجو . ورأى فرحان الناس فى هياج شديد ، وأيديهم يكاد يدميها

التصفيق الحار المتواصل ..
ودقق فرحان النظر الى الجنود ، والى المدافع والى الدبابات ، انها مصرية كلها ، وهو لم يكن يظن من قبل أن فى مصر أشياء من هذا النوع . لم يكن يصدق أن فى مصر عساكر يفتحون الروح ، ودبابات تهز النفس ، ومدافع مثل مدافع الانجليز التى رآها فى القنال ..
كان يحب الانجليز لأنه تدهم أنهم وحدهم الأقوياء وكان يعتقد ـ ولا يدرى لماذا ـ ان الله خلق الانجليز أغنياء وأقوياء ، وانه خلق المصريين ضعفاء وفقراء . خرافة كان يعتقدها فرحان والدليل على أنها خرافة .. هذا المجد الذى يراه ..
وألقى فرحان بالشوال من يده ، وصفق طويلا للصفوف التى راحت تتدفق أمام عينه ..
ومضت ساعات طويلة وفرحان واقف مكانه لا يفكر فى أن يتزحزح خطوة رغم الألوف الذين يدفعونه من خلف ومن أمام ..

وعندما انتهى العرض .. كانت عينه اليمنى قد تعبت من شدة ماحدق فى الجنود الذين مروا من أمامه ..

وأحس فرحان بألم شديد فى عينه الشمال . فضرب يده فى جيبه .. وأخرج منديله المحلاوى ومسح به على عينه الممسوحة . ثم أطبق بأسنانه على المنديل ونقع الشوال على كتفه ، وراح يعبر ميدان المحطة ..
وخطرت لفرحان وهو يعبر الميدان صورة فى خياله ، هؤلاء الجنود يملأون صحراء القنال . لا وطن ، ولا مطارى ولن يفقد يفقد أحدا عينه بعد الآن ..

وسيكون الشغل فى الدبل مع هؤلاء الجنود مضمونا . لن يخاف الذين يعملون معهم من الضرب أو الموت ..

فكرة جميلة لمعت فى رأس فرحان سيزور بلده دراو فى الصعيد ، ثم يأخذ أول قطار ليعود الى الدبل .. الى القنال . وسيعمل ريس أنفار عند هؤلاء الجنود .. أبناء بلده ، الذين كان يصفق لهم عندما مروا من أمامه منذ لحظات ..

العمارة ..



وقف عوضين يتأمل – ولعابه يسيل ودمع عينه المعطوبة ينهمر – العمارة الضخمة الشاهقة كالهرم الكبير . وفي لحظة واحدة تذكر كل الأيام الطويلة التي قضاها هنا – في العمارة – يحمل الطوب ، ويتأرجح فوق السقالة ويدندن بأغانيه الساذجة . في هذه الشرفة التي يطل فيها الورد كان يقضي معظم أمسياته يراقب الشاي وهو يغلي على النار ..

ومن هذه النافذة التي تقف فيها البنت الحلوة كان يحلو له دائما أن يتفرج على السكارى العائدين الى بيوتهم في منتصف كل ليلة ، وكان يلذ له وهو يتدلى منها تتبع الخواجات رجالا ونساء وهم يخطرون كالأوز الفيومي على الرصيف ..

وثبت عوضين نظره على مدخل العمارة الجميل المفروش بالقطيفة .. أو ما يشبه القطيفة ، وأواني الورد تتناثر في أنحائه في نظام بديع .. ولاح على شفتيه شبح ابتسامة خبيثة ..

ففي هذا المدخل كان عوضين يقضي أحيانا حاجته وأحس عوضين وهو يقف أمام العمارة بحب جارف لها .. انها جزء من نفسه ، تماما مثل ابنه الوحيد الذي فقده منذ أعوام مضت .. عندما وقفت الحمى الراجعة على الصعيد ..

وانتزع عوضين من تأملاته يدا ضخمة امتدت الى قفاه بصفعة قوية . وخطر لعوضين أنه ربما يكون واحدا من

أصدقائه يمزح معه . ولكن عندما التفت خلفه راعه منظر الرجل الذي يقف خلفه كان طويلا عريضا مثل ثور الوسية منفوش الشارب ، مفتول العضل وكأنه مصارع في سيرك . وفطن عوضين بتجاربه الطويلة الى انه مخبر ، وأن الصفعة التي رنت على قفاه لم تكن من باب المزاح ، بل كانت بداية لمعركة يخشاها عوضين جدا لأنها دائما تنتهي به الى قسم البوليس ...

وأقسم عوضين – وهو يكاد يبكي – على أن وقوفه أمام العمارة ليس بقصد التسول ولا لشروع في سرقة . وانه عامل بناء ، أقام عدة عمارات من بينها هذه العمارة بالذات ، وانه عاد اليها لمقابلة الباشمهندس الذي يعمل لحسابه ، والذي يقطن في الدور الأخير . وفتش عوضين في كل خرق من ملابسه قبل أن يعثر على العنوان الذي يحمله . وسأل المخبر بواب العمارة عن اسم الساكن المدون في العنوان . وأجابه البواب في لهجة سريعة بأن هناك ساكنا في الدور الرابع بهذا الاسم .. عندئذ رمق المخبر عوضين بنظرة ذات مغزى .. ثم تركه وانصرف ..

ومصمص عوضين شفتيه أسفا على البخت المهبب وسوء الحظ الذي أوقعه في طريق المخبر غليظ الكف ، ولكنه شاء أن يتجاهل الأمر ، فاطبق على الورقة التي تحمل العنوان بأصابعه ، وهم باقتحام العمارة ، غير أن يد البواب حالت دون تحقيق هذه الرغبة ، وعندما استوضحه الأمر ، ألقى البواب عليه أمرا سريعا ، فهم عوضين من ورائه أن الباب ممنوع عليه وأن هناك بابا خلفيا وجد خصيصا لأمثاله ..

واهتدى عوضين الى الباب بسهولة ، وراح يصعد الدرج الحديدي بسرعة ، فهي بالنسبة اليه مهنة قد تدرب عليها طويلا وعندما وصل الى الشقة التي يقصدها طرق بابها بأصابعه ، ووقف ينتظر ..

وأطل عليه من طاقة زجاجية وجه أسود غليظ يبدو أن صاحبه يأكل بغير حساب . نظر اليه متفحصا بعض الوقت

ثم فتح الباب بعد ذلك ، وقبل أن يستفسر منه عن مقصده دفعه فى صدره بشدة ونهره بكلام طويل • ثم أشار له فى النهاية الى الأرض التى يقف عليها ، وعندما نظر عوضين الى حيث أشار تأكد لديه أنه أخطأ ، وأن قدميه الحافيتين تحملان بقايا طين لطخ البلاط وهو السبب الذى من أجله ثار الرجل الأسود البدين ••

واعتذر عوضين بكلمات ساذجة ، ثم مد اليه يده وناوله ورقة مطوية ، أخرجها من كيس قماش يحمله ، ليس فى داخله شىء سوى عدة أوراق مطوية بعناية ، ولونها استحال لطول العهد بها الى صفار ••

وتناول الخادم الورقة فى شىء من الاشمئزاز ، ثم غاب فى الداخل ولم ينس أن يغلق الباب ويحكم الاغلاق • ووقف عوضين ينتظر وأصابعه داخل فمه يعض عليها من الغيظ والحسرة • وبعد مدة فتح الباب وظهر منه الخادم البدين وقال له فى غير مبالاة :

ـ البيه بيقولك قول للمقاول انه رايح بكره فى المغرب •

وهز عوضين رأسه موافقا ، وفتح فمه عن ابتسامة بلهاء ، ومضى يهبط الدرج الحديدى الى أسفل ••

وخطر لعوضين خاطر غريب سرعان ما نفذه ببطء وهو يهبط الدرج وراح يعد السلالم ، وعلى وجهه يبدو سرور عميق وعندما وصل الى آخر السلم كان قد وصل الى العدد مائتين • ثم خرج من الباب الضيق الحلقى وما لبث أن غاب فى الزحام

البوابة ••



جاء عم حسين كعادته الى بوابة معسكر البحارة الانجليز فى بور سعيد . وألقى نظرة من خلال فتحات البوابة الحديدية .. فرأى عدة جنود يذرعون الفناء ، وباخرة ضخمة تقف عند الرصيف ، والنور ليس باهرا كما كان فى الليالى الماضية ، وثمة صفير حزين يخرج من فم جندى صغير يتسكع فى الفناء
واتخذ مكانه المختار بجوار البوابة ، وأخرج رغيف عيش ودراج يقضم منه فى هدوء ، وهو يرفع بصره بين الحين والحين ليتابع النور الذى كان يتحرك فى خط بعيد داخل الصحراء العريضة ..

كان النور يقترب منه شيئا فشيئا .. ولم تمض دقائق حتى سمع عم صوت عربة تكركر على الطريق ، ونورها القوى يكشف أسلاك المعسكر ، والبوابة ، ويكشف ايضا .. عم حسين ..

وظن عم حسين انها « كبسة » ، فقد كانت طبيعة الأشياء بالنسبة لعم حسين أن يقع بين الحين والحين هجوما خاطفا من دوريات البوليس ، تخطفه وتلقى به على أسفلت سجن بوليس الميناء ، كلما قدم الانجليز شكوى ضد عم حسين !!
وعم حسين كان يبدو دائما فى حيرة شديدة .. من أمر هؤلاء الانجليز ..

فهو لم يكن يحاربهم ، ولا يعاديهم ، ولا يضمر لهم شرا . كان ينام فقط فى البوابة المقامة أمام معسكر البحارة ، ولو كان لعم حسين بيتا لما نام هناك ..

وحتى هذا .. حتى النوم فى البوابة لا يهنأ به عم حسين طويلا . فقد اعتاد أن ينام فى البوابة حتى السادسة صباحا حين يحضر جندى الحراسة الانجليزى فيلكزه بكعب البندقية ، ويأمره بالخروج منها ، ويشتمه ويسبه ، وأحيانا كان يلقى اليه بسيجارة .. فيلتقطها عم حسين ويمضى الى الخلاء ..
وأحيانا كثيرة كان عم حسين يفتح عينيه مذعورا قبل السادسة بدقائق ، وكان يوقظه من نومه كابوس ثقيل ، ولكنه يحمد الله فى سره لأنه استيقظ قبل حضور جندى الحراسة ،

وكان يتسلل فى هدوء الى الميناء ، وكوزه فى يده ، وعيناه تمسح الأرض بحثا عن الأعقاب ..
وتوقفت خواطر عم حسين فجأة عندما أصبحت العربة التى ظل يتابعها ببصره وهى عند الأفق البعيد . وسره انها ليست عربة بوليس ، ودهش لأنها عربة انجليزية يقودها جندى ، وعلى جواره يجلس ضابط حديث السن ، وامارات القلق تبدو على وجه كل منهما . دهش لأن معسكر البحارة يغلق بابه بعد الساعة السادسة ، ولا تفتح بعد ذلك الا فى السادسة صباحا

وازدادت دهشة عم حسين عندما رأى أبواب المعسكر تفتح . والعربية تدخل مسرعة الى رصيف الميناء . لابد أن نظام الكون قد تغير حتى يحدث هذا . اذ لم يحدث من قبل شىء مثل هذا خلال عشر سنوات طويلة قضاها عم حسين فى بوابة المعسكر
ولكن دهشة عم حسين سرعان ما فارقته ، فعاد الى رغيفه يقضمه فى هدوء ..

وعندما انتهى من طعامه ، انقلب على جنبه فنام ..
ومرت ساعتان وعم حسين نائم كالفسيخة لا يدرى شيئا . ولكنه صحا فجأة على صوت كركبة داخل المعسكر ، أصوات كثيرة خرمت أذنيه وهو نائم كعوب أحذية تدق الأرض ، وكعوب بنادق وصفير باخرة ، وندءات عسكرية ، لم يستطع عم حسين أن يتبين شيئا منها ، ومرت به وهو نائم يتقلب كأنها حلم !!

وانتفض جسم عم حسين كله عندما ارتفع فى الجو صفير مزعج لباخرة ضخمة ترحل من الميناء ، وخطر لعم حسين أن ينهض من مكانه ولكنه لم يستطع ، كان جسمه مرهقا ثقيلا ، وكأنه شوال محشو بالرمال .. وعندما هب عليه هواء الصحراء الرطب نسى الأمر كله .. ونام ..

ومضت ساعات طويلة قبل أن ينتفض عم حسين من نومه مذعورا شأنه فى كل صباح ..
وغاص قلبه فى ضلوعه عندما رأى الشمس تتوسط الأفق ونارها الحامية تكوى كل شىء ، وبوابة المعسكر مفتوحة

وحارسها يقف زنهارا على اليمين ، لابد أنه انجليزى طيب فلم يشأ يزعجه أو يطرده ..

وفرك عم حسين عينيه ، وراح يحاول فى جهد شديد تبين الأشياء التى أخذت تتراقص أمامه ، لابد أنه قضى وقتا طويلا فى النوم ، ولابد أن الساعة قد جاوزت التاسعة صباحا ، وتصيبه من الأعقاب لطشه الصبية والرجال الآخرون ..

واستدار عم حسين مرة أخرى وراح يدقق النظر فى وجه الحارس الذى وقف زنهارا أمام البـاب . وانتفض عم حسين فقد كان وجه الحارس أسمر .. بل شديد السمار . لابد أنه موريشان ، أو جندى من الجنود الافريقيين . ولكن لا ، فسحنة الواقف عند الباب مصرية ، وهيئته هيئة ابن بلد ، ولا يمكن أن تخطىء عين عم حسين .. رغم انها فقـدت كثيرا من نورها القديم ..

وتقدم عم حسين الى الجندى الذى يقف هناك ..

وسلام عليكم ، وعليكم السلام ، يا خبر أبيض ، انه مصرى ابن مصرى ، بل هو فلاح أيضا .. فهناك فوق صدغه تستقر حمـامة خضراء وديعة .. وفوق صـدره العريض تبدو بعض الشجيرات والسباع ..

ولكن ـ ماذا جرى ؟ .. هل تغير نظام الكون ..

ـ ايه الحكاية يا شـاويش ، همه الانجليز راحوا .. فى داهية والا ايه ؟ ..

ورد العسكرى فى هدوء :

ـ خلاص ، سابوا بر مصر ..

ـ من امتى الكلام ده ؟ ..

ـ امبارح بالليل وانت نايم ..

ـ سبحان الله ، والله باحسبه حلم ..

ومصمص عم حسين شفتيه طويلا ، وضرب كفا بكف ..

وقال وهو يتمتم :

ـ والله عشنا لما شفنا .. سبحان الله ..

ونظر الى الجندى الواقف زنهارا فى حب شديد ، ثم استدار

على عقبيه ، وراح يقطع المسافة بين العسكرى والبوابة فى كسل شديد ، وفمه يفتح ويغلق وهو يتثاءب فى استرخاء لذيذ .. وعندما أصبح أمام البوابة ، ألقى نظرة من بين فتحات الحديد .. كان هناك عدد من الجنود يقطع الفناء ، سمر الوجوه مثل عم حسين وأمسك الرجل بقضبان الباب الحديدية ، وراح يبتسم ، وقلبه يخفق بشدة . ان لقد رحل الانجليز الى غير رجعة .. ياسبحان الله ؟ .. وتنهد بعمق ، ثم تنفس طويلا .. وضرب صدره بقبضة يده المعروقة النحيفة . ثم نظر الى البوابة نظرة طويلة ، وتثاءب من جديد قبل أن يحنى رأسه ، ويمر من البوابة ، ويفترش الأرض ويروح فى نوم عميق .

فلتنتظر أعقـاب السجائر .. مادام عم حسين يستطيع اليوم أن ينام فى هدوء ، وسينام قطعا فى هدوء .. فقد رحل الانجليز ..

قصة من الجزائر



دق عليها الباب ذات مساء ، وعندما فتحت الباب وجدت ثلاثة رجال يحملون شيئا مجهولا ملفوفا فى ثوب قماش . ولم يتحدث اليها أحد ، وكذلك لم ترتفع عين أحدهم لوجهها ، بل تحركوا الى الخلف صامتين ، واستداروا على أعقابهم ، وراحوا يقطعون الدرب الضيق المظلم الذى يفصل بين باب البيت والطريق ، وعندما بلغوا نهاية الدرب انحرفوا الى اليمين .. وغابوا خلف الجدار ..

وانحنت المرأة على الشىء الملفوف فى قماش ، والذى تركه الرجال المجهولين تحت أقدامها ومضوا . وكانت لمستها الأولى لهذا الشىء كفيلة بأن ترعش جسدها كله لفرط الخوف .. فقد تبينت بأصابع يدها أن الشىء الملفوف جثة !! ..

ولكن هذا الاحساس بالخوف زايلها بعد برهة ، فعادت الى نفسها ترقب الدرب والطريق ، وأسطح البيوت المطلة على باب البيت . ولما تأكدت من خلو الأسطح والدرب والطريق ، قامت فغادرت مكانها بسرعة ، واختفت داخل البيت لحظة ثم عادت ومعها لمبة يرتعش ضوؤها الأصفر الواهن على الجثة المطروحة فوق الأرض ، وعلى الجدران . وراحت المرأة تعبث بأصابعها فى كفن الجثة وهى تجاهد لتمزقه ، حتى نجحت أخيرا ، ونفذت أصابعها الى الكفن ، ولمست جلد الميت البارد السميك . وندت عن المرأة صرخة مكتومة عندما أخرجت أصابعها . فاذا بها جميعا ملطخة بدم لزج كثيف .

وتركت المرأة المصباح على الأرض بجوار الجثة ، وانهالت على الكفن تمزيقا وتشريحا بكلتا يديها . حتى انكشف الرأس .. وبان الوجه مشوها بشعا ، والدماء تغطى ملامحه ، وقد مال كثيرا الى جانب الجثة اذ لم يكن يربطه بها الا قطعة صغيرة من الجلد لم يتمكن السلاح الرقيق من فصلها . وصرخت المرأة كلبؤة فقدت شبلها ، ولطمت وجهها بشدة ، ثم قامت تجرى

وتضرب رأسها فى الجدار بعنف كمن تنوى حقا أن تحطمه .

لم تمض دقائق بعد هذا حتى ضاق الدرب بالمئات الذين هرعوا على الصراخ بعضهم التف حول الجثة . والبعض الآخر أحاط بالمرأة التى جنت . ولم تهدأ المرأة حتى انهارت فى اغماءة طويلة . حضرت خلالها عربة نزل منها ضابط فرنسى ، تبعه جاويش ، وألقى الضابط نظرة على الجثة وقيد أوصافها والطريقة التى ذبحت بها ، ثم غادر المكان وتبعه الجاويش ، وانطلقت بهما السيارة ثم اختفت ..

وجاءت بعدها عربة أخرى حملت المرأة ومضت ، وبقيت الجثة طريحة الدرب ، ومن حولها عشرات من الناس ، بعضهم يتفرج ، وبعضهم يثرثر مضطربا عن سبب القتل ودوافعه .

***

عند باب المستشفى فوجىء الرجل الذى فتح الباب الخلفى للعربة ليحمل المرأة الى الداخل برجل وامرأة يجلسان حول المرأة فى صمت وثقة . وعندما سألهما ان كانت ثمة قرابة تربط بينهما وبين المرأة أجابا بالنفى ، وأضافا أنهما يسكنان فى البيت المجاور ، وعلى علاقة معرفة بها ، وأصرا على ملازمتها فى فراشها خلال اجراء الاسعافات الأولية .. والى أن تفيق

وعندما أصبح الرجل وزوجته وحيدين ، والمرأة نائمة على فراشها .. تعانى من الاغماء ، نظر الرجل الى زوجته نظرة طويلة وهز رأسه وهو يضغط على أسنانه :

— أنا لا أتصور أنه القاتل ؟! ..

واختلست الزوجة نظرة الى المرأة الممددة ، وهمست لزوجها :

— من يدرى ؟ .. انه لا يعمل وحده .

— ولكن طريقة الذبح واحدة .. أنا رأيت الجثة .. و ..

ولكنه لم يستطع أن يمضى الى أبعد من هذا ، فقد حركت المرأة النائمة جفونها ، وتقلبت على الفراش وقد فاقت من غيبوبتها ، وعندما رأت صديقتها وزوجها ، ونظرت حولها فتأكدت أنها فى فراش آخر غير فراشها ، وأنها فى مستشفى ، تذكرت ما حدث لها ساعة أن دق عليها الباب طارق غريب ، الى أن

رأت رأس ابنها مقطوعا بسكين ، والدم يخفى معالمها ويشوه جمالها . وانفجرت المرأة فى بكاء عنيف ، وراحت الزوجة الصديقة تهدأ من روعها بكلمات طيبة . ولما كفت عن البكاء تماما ومسحت دموعها التى كانت تجرى على خديها قالت وفى صوتها رنة أسف عميق :

— هل رأيت ولدى كيف ذبحوه ؟ .. أنت لا يمكن أن تتصور منظره ؟ ..

وسرعان ما اختفت رنة الأسف من صوتها ، فارتفع متحديا هازئا هذه المرة :

— وما ذنب الصبى ؟ انهم يبغون قتلى أنا [illegible] لم يقتلوننى ؟ آه .. هؤلاء المجرمين ..

كان الزوج وزوجته يستمعان فى صمت [illegible] نحو الأرض ، وحزن بالغ يسيطر عليهما ، وعندما أقبل الطبيب نهض الزوج فصافحه ، وانتحى به جانبا [illegible] صلة به عندما كان الزوج يعمل موظفا [illegible] قبل أن يحال الى المعاش ، ولما أصبح [illegible] المرأة المصابة قال له :

— أرجو أن تكون بخير ؟

— انها بخير فعلا ، ولكن لا بأس [illegible] المستشفى .. على الأقل لتكون بعيدا عن [illegible] يجوارك على ما أظن [illegible]

— نعم ..

— أليست هى [illegible]

— هى .. وقد قتلوا ابنها ..

وعندما [illegible] على الفور ودون أن يبدو عليه انفعال ما ، وقال فى [illegible]

— مسكين .. وما ذنب الصبى ؟ ..

***

[illegible]

وكذلك كان حال كل أهل مدينة « تلمسان » اذ كانت قصة المرأة شائعة على كل لسان وحتى المفاوضات التى دارت بينها وبين رسل جيش التحرير قبل أن تحدث المأساة كان الناس على علم بتفاصيلها . والمرأة نفسها كانت معروفة قبل قيام الثورة وخلالها ، فحفلاتها الضخمة التى كانت تقيمها لضباط الجيش الفرنسى كل يوم أحد ظلت حديث الناس فى المدينة والجبل .

وكانت صلتها بالفرنسيين تأتى عن طريق زوجها فقد كان يعمل ضابطا برتبة كولونيل فى الجيش الفرنسى ، ثم سافر على رأس فرقته الى الهند الصينية ، ولم يعد . وقالوا أنه مفقود .. ربما أسير لا يلبث أن يعود عندما تضع الحرب أوزارها .

ولكن أعوام طويلة مضت ولم تنته الحرب ولم يعد زوجها . وان كانت صلتها بالضباط الفرنسيين أصدقاء زوجها لم تنقطع خلال تلك المدة . وكانت قد أنجبت بعد اختفاء زوجها ولدا

صغيرا كان مولده حديث المدينة كلها . فقد اختلف الناس فى الزمن الذى يفصل بين اختفاء الزوج ومولد طفلها . وان كان الجميع قد اقتنعوا بأن المدة طويلة ، وأن الطفل ليس ابنها من الزوج ، وانما هو ابن ضابط فرنسى رفيع كان سكيرا ومقامرا وقاسيا فى الوقت نفسه ، حتى أن ذكر اسـمه كان يرعش النفوس بالرهبة والخضوع ..

وعندما بلغت تقولات الناس أسماع عائشة لم تهتم ولم تكترث . كانت شجاعة ومتهورة وواثقة من نفسها الى حد الغرور ..

وكانت اذا فاتحها أحد الأصدقاء فى هذا الأمر تجيب فى هدوء :

ـ أنا شخصيا واثقة اننى لست مسيئة ، ولذلك لا أهتم كثيرا لكلام الناس ..

ولكن الأمر كان يختلف مع ادريس موظف مكتب الصحة السابق فقد كان على علاقة وثيقة بزوجها وله فى نفسـها مكانة خاصة لطيبته وعدم اهتمامه بسوءات الغير وأخطائهم .

فعندما أشار الى الموضوع من بعيد وبلباقة فائقة ، أجابته على الفور :

ـ ان المسألة ليست بالصورة التى يظنها الناس . لقد ولد الطفل بعد ثمانية شهور من اختفاء والده . لأن المرحوم كان عنا فى أجازة غادرنا بعدها الى الهند الصينية ولم يعد . ولكن اذا كان الناس واثقين من خطيئتى فلا حيلة لى لاقناعهم بعكس معتقداتهم . وليؤمنوا بما شاءوا مادمت أنا طاهرة ..

ـ ولكن الأمور قد تطورت من الحديث الى العمل . وأنا أخشى الآن من أن ترتكب جريمة ، ولو حدث هذا فلا أحد يعلم الى أى مدى يكون عمق الضربة القادمة ..

ورنت عائشة وقد امتقع لونها من الخوف ربما لأول مرة منذ أن أصبحت سيرتها حديث الناس فى المدينة . وقد يكون السبب فى ذلك الى أن الرجل الذى يتحدث اليها من النوع الذى يزن كلامه ، ويضع كل كلمة فى موضعها . فلا هو ثرثار ، ولا هو من هواة الحذلقة .

وهناك سبب آخر فهو صهر الرجل الذى يقود الوطنيين ضد الخونة داخل المدينة ، وهذه المخاوف التى تساوره لابد سمعها من صهره أو أحد المحيطين به . ومالت عائشة على ادريس وهمست ووجهها قريب من وجهه :

ـ لقد أنذرونى فعلا بقتل الصبى اذ أنا لم أغلق بابى فى وجه الضباط الفرنسيين ، بل لقد نصحونى بأن أغادر تلمسان والجزائر كلها . والى أين أغادر ؟ .. أنا شخصيا لا أعرف مكانا ألجأ اليه . وهب اننى لم أغادر تلمسان ، هل تراهم يقتلون الطفل . انها جريمة .. هل يرتكب الوطنيون الجرائم ؟

ـ انها جريمة حقا ، ولكن الجزائر فى حرب ، وفى الحرب ترتكب الجرائم ..

وعضـت المرأة شـفتيها فى قسوة ، ثم اعتـدلت على الفور ، وقد رسـمت ابتسامة كاذبة على وجهها عندما دخل الحجرة ابنها . كان فى العاشرة من عمره ، وسيم ، مرح ، تتهدل على جبهته خصلة شعر ثائرة ، وعندما أقبل على أمه

قضمها اليه ثم قبلها فى حب عميق ، استدار ناحية ادريس فحياه من بعيد .. ثم غادر الحجرة الى حجرته .

***

خلال الأيام التى قضتها الأم فى المستشفى لزمت الصمت تماما فلم تفتح فمها بكلمة واحدة . حتى عندما زارها المحقق الفرنسى فى اليوم التالى مباشرة لم تذكر له شيئا مما حدث ، بل إكتفت بأن قالت له على الفور :

ـ لا أعرف شيئا على الاطلاق . لقد فتحت الباب فوجدت جثته ..

وحتى عندما زارها ادريس وزوجته لم تدر بينهم أحاديث من التى تعودوها فى الزيارات السابقة . بل ظل ادريس وزوجته يواسيانها طول الوقت بكلمات طيبة ، ثم انصرفا بعد أن وعداها بالزيارة فى اليوم التالى مباشرة . واذ يمضى الزوج بجوار زوجته فى الطريق الى المنزل يلتفت اليها فجأة ويسألها سؤالا مباغتا :

ـ هو الذى قتلها .. أليس كذلك ؟ ..

ـ نعم هو . قال انه لم يكن يملك حلا سوى هذا ..

وقال الزوج فى عصبية شديدة :

ـ ولكن الطفل برىء ، لماذا لم تكن هى ؟ ..

ـ قالوا أن هذا يجعلها تتعذب أكثر ، أما الموت فهو خير حل لمشاكلها الراهنة ..

ـ أنا شخصيا أبيح القتل ولكن بسبب ، والطفل لم يرتكب ذنبا يبرر قتله ..

ولما لم تجبه الزوجة أثر الاستمرار فى حديثه فقد كانت المسألة بالنسبة له موضوع كرامة ..

ـ لقد وعدنى ألا يرتكب هذا الخطأ . أنا فى موقف لا أحسد عليه الآن . انها تستطيع أن تلف حول عنقى حبل المشنقة . لو عرف الفرنسيون بنية الوساطة فرأسى ستكون من نصيب المقصلة . أنا لا أجد سببا واحدا يبرر سكوتها على هذا الأمر ، لو اننى فى مكانها لقلت كل شىء ، فالمصيبة التى

حدثت لها تزعزع ايمان الملائكة ..

لقد قلت لك ابتعد عن هذه المشكلة ولكنك لم تنتصح . أنا أعرفهم جيدا ، فهم يفعلون كل شىء .. وأى شىء فى سبيل الجزائر . وأنا خمنت أكثر من مرة ـ لاصرارك ـ انك تتدخل لسبب آخر غير اشفاقك على الطفل ..

وتوقف الزوج عن السير ، وشد زوجته من ذراعها وقال محنقا :

ـ وماذا تعنين يا نظيرة ؟ .. أهو اتهام بالخيانة ؟ ..

ـ أنا لم أعنى شيئا ، ولكن هذا هو الذى أحسسته فترة من الزمن وأنت تقضى سهرتك عندها لتستمع الى وجهة نظرها .. ثم تقضى الليل كله معها لتنقل اليها وجهة نظرهم .

ـ وهل داخلك شك فى اننى لم أتوسط الا ابتغاء وجه الحق واشفاقا على الطفل البرىء ..

ـ ولكنك كنت مقتنعا بوجهة نظرها ..

ـ وماذا يكون فى هذا الأمر . هل يكفى اقتناعى ليكون دليلا ضد مسلكى ؟ ..

لقد كنت أكثر الناس ألما لعلاقتها بالفرنسيين . بل كانت نفسى تتمزق عندما أرى الضوء يشع من نافذتها ، وضحكات ثملة تعربد فى أرجاء البيت .. والأسطوانات الداعرة يتصاعد صوتها فى الجو ، مع صوت الكئوس المترعة . ولكننى كنت مؤمنا أن مسلكها هذا يمكن القضاء عليه بالكلمة الطيبة والنصح المخلص ، وأنا لا أومن بالعنف أبدا رغم اننى أكثر الناس الذين استهدفوا لبشاعة الحكم الفرنسى وحماقاته . اننى على المعاش الآن وأنا فى الخامسة والثلاثين . عاطل بلا عمل رغم استطاعتى زحزحة جبل . والسبب كما تعلمين اننى رفضت أن أفتح فمى بكلمة ، وكان اخوك فى منزلى يوم أن هاجموا المدينة ، وقلبوها رأسا على عقب بحثا عنه ..

واذا انتهى الزوج من حديثه الغاضب ، أخرج علبة سجائره فأشعل واحدة منها ، ومضى على الطريق الى جوار زوجته ،

وكل منهما صامت يحدق فى السماء التى تلمع بأضواء شاحبة ..

***

إطل أصحاب البيوت الأنيقة التى تقع على جانب الدرب عندما سمعوا صوت عائشة يجلجل فى المنزل بشتائم متتابعة توجهها للخادم التى تتصنع الذهول . وهدأ صوتها قبل أن تظهر فى النافذة الواقعة على الدرب ، جميلة فى أبهى زينة ، ترتدى روبا رقيقا شفافا أحمر اللون تزينه ورود بيضاء كبيرة . وشعرها يتهدل على كتفيها ، وخصلة كبيرة منه تخفى نصف وجهها وتحجب عينها وتهتز دائما فى دلال . كانت آثار المأساة قد زالت تماما عن وجهها ، وعينها الوحيدة التى تبصر بها الطريق تبدو فاتنة وكأنها لم تعرف البكاء أبدا .

وكان ادريس يقف خلف زجاج النافذة الى جوار زوجته يرقبان عائشة وهى نافشة كالطاووس . وعمست زوجته وهى تمصمص شفتيها :

ـ لابد أنها فقدت عقلها ..

وهز الزوج رأسه وقال فى هدوء :

ـ انها تتحدى فقط ، فهى عنيدة ..

ـ ولكنها ستفقد نفسها اذا سلكت هذا الطريق ..

ـ انها لن تسلكه فقط ، بل ستندفع عليه بكل ما أوتيت من قوة . أنا أعرفها جيدا فستفعل أى شىء حتى ولو كان فى ذلك قتلها ..

وعندما جاء المساء سبح منزلها فى الأضواء وارتفع صوتها بالغناء ؛ وصوت السكارى من الضباط الفرنسيين يغطى على صوتها ، وباتت ليلتها ساهرة تضحك وتشرب وتغنى وتصرخ بأشياء لا معنى لها . حتى أن ادريس عندما زارها عصر اليوم التالى وجدها مهدمة ، وكأنها أضافت الى عمرها عشر سنوات كاملة . وكانت عيناها متورمتان اذ يبدو أنها بكت كثيرا خلال النهار ، وأنها كانت تقاوم رغبتها فى البكاء ليلة أمس بالضحك والصراخ واصطناع السرور الكاذب . وازدادت دهشة

ادريس فقد كانت المرأة رغم مرضها الشديد تبدو جميلة . وبدت فى هزيمتها ـ على حقيقتها ـ طيبة وحيدة تقاوم فى جهد شديد صرخة تكتمها فى صدرها بأنها ذليلة حزينة تحس بفراغ شديد ، وخوف يتملك نفسها ويكاد يقضى عليها . ولم يشأ ادريس أن يعاتبها بعنف ، بل فكر كثيرا قبل أن يبدأ الحديث معها عن ليلة الأمس ..

ولكنها فجأة انتفضت ثائرة مثل اللبؤة ، قد زايلها شعورها بالذلة والوحدة والفراغ ، وردت مزهوة :

ـ وماذا فيما فعلته بالأمس . لقد كنت أفعله قبل ذلك ، فما وجه الغرابة اذن ..

ـ اغلب ظنى انك لم تفعليه رغبة فى فعله ، ولكن ظروف عصبية تتحكم فى الموقف الآن ، وأرجو أن تراعى الظروف .

ـ ان الظروف لاتهمنى أبدا . وقتل الطفل لن يوقفنى عند حدى . أنا أحب الفرنسيين وعلى علاقة صداقة بهم . والحرب لاتهمنى ، وأنا لا أحس احساسا ما نحو الجزائر . فأنا لم أستفد شيئا لأنى جزائرية . كما أن الجزائر لن تستفيد شيئا من ذلك ..

ـ أنا واثق انك لاتؤمنين بهذا الكلام ، انها مجرد ثورة أنت فيها على حق ، فأنا أقدر شعورك وأحترم ارادتك أيضا حتى ولو كانت تجافى الصواب . ولكنى أرجو مخلصا أن تحكمى العقل ، فأنا أخشى أن يتطور الأمر ، وعندئذ ...

وعض ادريس على أصبعه بغيظ ، وصمت فلم يتكلم ، فقد كانت المرأة قد مالت برأسها الى الأرض ، وهى تنشج بالبكاء فى صمت أول الأمر ، ثم مالبث صوتها أن ارتفع بالنحيب ، وجسمها الطرى أخذ يهتز كله اهتزازات عصبية سريعة . وظلت كذلك فترة طويلة دون أن يحاول ادريس منعها ، فقد كان يعلم بتجربته الطويلة معها أنها ان اندفعت فى شىء فانها لا تتوقف الا اذا كلت تماما واستنفدت قوتها ..

***

كانت هذه آخر زيارة لادريس لها فى بيتها . فقد اندفعت

المرأة الصابة بكل قوتها تتحدى أهل المدينة جميعا ، وتفتح بيتها كل ليلة للحفلات ، حيث تجتمع عندها شلة من أحقر ضباط الجيش الفرنسي وقواده ..

ومن جهة أخرى كانت الأمور قد تأزمت تماما واندفعت تتعثر من سيء الى أسوأ ، وزادت القيود التى فرضها الفرنسيون على أهل المدينة حتى صارت تلمسان وكأنها محاصرة ، فلا دخول ولا خروج ومحطات المراقبة تفتش كل عابر سبيل ، وحملات يومية تسفر عن القبض على الكثيرين ، وأحكام بالاعدام تصدر بالجملة وأخرى بالسجن ، حتى أصبح فى كل بيت فى تلمسان مأتما لاينتهى ولا ينقض ..

وشغل ادريس بنفسه وبزوجته . وفكر فى الهروب من تلمسان كما فعل الآخرون ، ولكنه كان محاطا بالعيون ترقب تحركاته ، فعن طريق ادريس يمكن معرفة الذين يذبحون الخونة داخل المدينة . ولكن ادريس لم يكن يهتم بنفسه كثيرا ، كان همه كله زوجته . كان يعمل سرا لاخراجها من تلمسان ، ولم يكن أحد يستطيع أن يقوم بهذا العمل سوى شقيقها .. الرجل الذى يقود الوطنيين الذين يذبحون الخونة داخل المدينة ..

ولما كانت مقابلته لصهره لازمة ومستحيلة فى الوقت نفسه فقد فكر طويلا فى طريقة للاتصال به لا يمكن أن تخطر على بال الجواسيس الذين انطلقوا خلفه . ولكن ما هى الطريقة ؟ مسألة تكاد تفقده رشده .. فالأمور تبدو سيئة لدرجة أن الفرنسيين قد يدمرون المدينة غدا انتقاما للهجمات المروعة التى يشنها جيش التحرير على الجنود داخلها . ولكن مضى أسبوع دون أن يجد طريقة ما . وفكر فى أن يذهب بنفسه ليقابل صهره على ما فى هذا العمل من أخطار قد تعرضه للموت . والموت بالنسبة له لا يعوقه عن اتمام المهمة ، ولكنه يخشى أن يصطاد الفرنسيون صهره ، وعن طريقه يمكن اصطاد الجميع .. مشكلة تكفلت بحلها الظروف فقد انسحب الفرنسيون من المدينة وحاصروها ، وأنذروا السكان

بالادلاء بمعلوماتهم عن « مثيرى الشغب ومرتكبى الحوادث الاجرامية » وحددوا لهذه المهمة سبعة أيام كاملة . فاذا انقضت دون نتيجة دخلوا المدينة وقد أباحوها لأنفسهم ، ولكى يزيدون الأمر روعة فقد أعلنوا فى انذارهم أنهم سيبيحون المدينة لجنودهم ، وستطلق لأيديهم حرية التصرف للقبض والقتل والتفتيش ..

وأحدث الانذار فزعا داخل المدينة . ومضى الناس يبحثون لهم عن طريق يسلكونه الى خارج تلمسان قبل أن تبدأ القارعة ومات المئات عند أبواب المدينة وهم يحاولون الفرار منها الى الجبل . وبقى القتيل عادة يفكر فى المأساة بعمق ، ويحاول أن يجد حلا مناسبا لها ..

***

اجتمع الرجال الذين اختارتهم المدينة بالانتخاب لتقرير مصيرها فى اليوم الثالث للانذار ، ليبحث الجميع عن حل لمواجهة الموقف . والقى بعضهم كلمات قصيرة . واكتفى بعضهم باقتراح الحلول التى يراها مناسبة للموقف ، وعندما جاء الدور على ادريس عتف فى هدوء وثقة :

— يجب البقاء هنا والدفاع حتى الموت عن المدينة . وأخذ بعضهم الاقتراح على أنه صادر عن عاطفة حماس شريفة ، وأنه غير ممكن التنفيذ . لأن تنفيذه يكلف تلمسان حياة أهلها جميعا . فالفرنسيين لا يرحمون ، وهم ان وجدوا مقاومة فسيعمدون الى ابادة كل شيء .. وسمح تلمسان من خريطة الجزائر ..

ولكن ادريس لم يشأ أن يترك تفسير اقتراحه لتكهنات الغير . فأخذ يشرح الأسباب التى دعته الى هذا فى هدوء شديد ، والكل ينصت له فى اخلاص وصدق :

— ان البقاء هنا داخل تلمسان قد يعنى الموت لنا جميعا . هذا صحيح . ولكن أى اقتراح آخر لا يقل عن اقتراحى هذا خطورة ، وان كان يقل عنه شرفا لا ترضاه نحن أهل تلمسان . ولو كان الهروب متيسر لاقترحت هذا ، ولكن كل الذين

حاولوا الهرب لقوا حتفهم وهم بعد عند أبواب المدينة ، وهنا الأمل ضعيف لو بقينا فى أن ننتصر ، ولكن الأمل يفقود تماما فى أن ننجوا لو حاولنا الهرب ..

كا نيتكلم وكأنه مدرس يشرح درسا ؤ التاريخ يعرف تفاصيله ، ويثق فى حقيقته ، لم يتلعثم ولم يخطىء ولم يتوقف لحظة خلال الحديث . وعندما انتهى منه كان الجميع قد وافقوا على الرأى .. لسبب بسيط هو أنه لم يكن هناك رأى غيره .

***

كان يتكلم وكأنه مدرس يشرح درسا فى التاريخ يعرف الاجتماع الى بيته . والدنيا صيف ، والجو بارد ، والريح تهب من ناحية البحر وتهز أشجار الزيتون ، فتفزع لهزتها أنثى الـبط ، واسراب البجع المهاجرة نحو الشمال هربا من القيظ ورائحة أشجار الزيتون تعبق فى جو تلمسان ممتزجة برائحة الكروم التى تعفنت على التلال المحيطة بالمدينة . كان ادريس يحس بالراحة تسرى فى بدنه فقد أدى خير ما يستطيع لوطنه فى أحلك ظروفه . وهو يشعر بالرضا لأنه سيموت ميتة كان يتمناها .. سيموت فى المعركة . وهو لابد ميت ، فخير عناصر هذا الشعب ستموت . وستأكل الأرض ملايين الناس فى الجزائر قبل أن تشرق عليها الشمس دون جنود فرنسيين ، وهذه الأرض التى يمشى عليها ستتحول الى مقبرة ضخمة

كأرض الهند الصينية قبل أن تتحرر وترتفع رأسها من الطين الذى غاصت فيه . ولكن هل كان مصيبا فى اقتراحه بالبقاء والمقاومة ، وهل يستطيع كل انسان فى تلمسان على البقاء والمقاومة . ولماذا لم يترك الحرية لكل انسان أن يهرب أو يقاوم حسب ظروفه . أو ليست أنانية منه أن يقترح المقاومة . انه يحس الآن صادقا انه لم يقترح ولكنه كان يأمر . فقد كان عقله الباطن يتحكم فى لسانه عندما تكلم ، وهو نفسه كان يعلم قبل أن يبدأ الكلام ان موقفه يحتم عليه البقاء والمقاومة ، لهذا السبب اقترح المقاومة .. مادام هو سيقاوم فليقاوم الجميع . وزوجته نظيرة .. انه لا يطيق أن يراها جثة . بل

هو لايتصور هـذا أبدا . ولابد من اخراجها من تلمسان بأية وسيلة . فلو حدث الهجوم وهى فى المدينة لكانت كارثة انها صغيرة وجميلة وشهية ، وستكون هدف الجميع وقت الغزو . هذا لا يمكن أن يحدث أبدا ولو اضطر الى قتلها خنقا بيديه ..

أفاق ادريس من خواطره وهو يغيب داخل الدرب فى طريقه الى منزله . وارتفع بصره فجأة وبحركة تلقائية الى شقة عائشة ، فألفى الظلمة تخيم عليها ، ولا صوت هناك ولا حركة وتذكر ادريس أن صوتها لم يسمع منذ أيام طويلة حتى قبل أن يغادر الفرنسيون المدينة . وخشى أن يكون قد أصابها مكروه فقطع الطريق الى منزلها ، وطرق الباب فى عنف . وفتح الباب بعد مدة .. وكانت هى التى فتحت الباب بعد أن تأكدت من شخصية الطارق . ودعته الى الدخول فدخل على الفور وهو ينقل خطواته فى اعياء يصعد درجات السلم المؤدى الى مسكنها ..

وعندما أصبح أمامها ثبت بصره عليها يتفرس فيها طويلا . كانت المرأة التى عرفها زمنا طويلا قد اختفت وحلت محلها أخرى بعيدة كل البعد عنها . فقد بدت عيناها متقرحتين من أثر السهر والبكاء ، ورموشهما تآكلت ، ووجهها الذى كان مستديرا أصبح بارز العظام ، تناثرت فيه الكدمات والجيوب حتى ليبدو على صاحبته أنها قد تجاوزت عامها الخمسين بكثير . وعندما نظرت اليه بعينيها بدا فيهما أنها تعانى صراعا رهيبا منذ أيام . ولم يدر ادريس ماذا يقول لها .. وهى على هذه الحالة من اليؤس والهوان . وفكر فى أن يستأذن عائدا بأسرع مما جاء . ولكن نظرتها التى كانت تنطق بمعانى التوسل والرجاء ربطته على مقعده فلم يستطع أن يتحرك . واذ هدأت المرأة قليلا رفعت رأسها نحوه وراحت تنظر اليه ثم قالت فجأة :

- حتى أنت ؟ ..

وتململ ادريس فى جلسته دون أن ينطق بحرف ، فقد

كانت العبارة التى نطقت بها عائشة تنضح بالسخرية . وكان منظر وجهها وهى تنظر اليه ، وبريق عينيها اللامع يأكلان أعصابه التى شدتها الكوارث المحيطة بالمدينة ..

ومضت عائشة تقول فى نفس نبرة الصوت الساخرة :

– لقد كنت دائما متيقظة ، ولكن هـذا لم يخطر لى أبدا بالنسبة لك . فأنت الوحيد الذى تفهم موقفى ، وأظنك تقدره

ومنحت الفرصة لادريس لكى يتكلم ، فقد بدأت عائشة موضوعا يرغب هو فى أن يتحدث فيه :

– بل اننى أفهم موقفك وأقدره فعلا . اننى أشعر بأسف شديد لما تطورت اليه الأمور أخيرا . فقد كان مسلكك بعد الكارثة غريبا حتى اننى لم أفهمه ..

– انك لم تفهمه .. لأنك لم تحاول . لقد أصبحت أنت الآخر تخشى المجرمين مثل الآخرين ، وأنا أعذرك ..

تصاعد الدم الى وجه ادريس وبدا غاضبا محنقا . ولكنه استطاع رغم هذا كله أن يكتم سخطه ، بل استطاع أكثر من هذا أن يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة . وتشاغل باشعال سيجارة راح يدخنها بلذة وبلهفة شديدة . واذ عدلت المرأة من جديد ومنحت الفرصة مرة أخرى لادريس بالحديث فقد نطق على الفور قائلا :

– أنا لا أخاف أحدا ياعائشة وانت تدركين معنى ما أقول ، ولو أن الخوف يعرف طريقه الى قلبى لما كنت الآن هنا فى تلمسان أستعد لتلقى الضربات القادمة . غير انى كنت دائما ضد التهور ، حتى فى حربى للفرنسيين ، فأنا أختار أعدائى أولا ، ثم أتعمق فى القضية التى أعاديهم من أجلها ، وموقفك الأخير كان مصحوبا بالتهور فقررت أن أبتعد .

– ولأنك ضد التهور فقد اتهموك بالخيانة انت الآخر ..

وانتفض ادريس غاضبا وبدا كأنه وحش غاص فى جسمه نصل حاد من الخلف ، غير أن هذا المظهر الذى ارتداه لم يستمر سوى لحظة ، اعتدل بعدها فى جلسته حتى رجع الى حالتـــه الطبيعية . وقال فى صوت أكثر ارتفاعا وأشد حزما :

– ان أحدا لم يتهمنى بالخيانة يا عائشة ، ولا يجرؤ كائنا من كان على ذلك . ولقد قطعت رحلة الحياة ماضيا كالسيف لم انحرف لحظة لا ناحية اليمين ولا ناحية الشمال . وأنا من النوع الذى يقتل نفسه بيده لو شابت سمعتى فى الحياة أية شائبة ، انها رصيدى كله وأنا لا أملك شيئا سواه ..

وضحكت عائشة ضحكة جميلة بدا وجهها خلالهـــا باهرا كالعهد به . وتحير ادريس فى أمر هذه المرأة التى تجـــد فى نفسها رغم كل الظروف المحيطة بها مكانا تنتزع منه ضحكة جميلة كهذه التى رنت من فمها منذ لحظات . وعندما عاد الى نفسه وجدها جالسة فى مكانها هادئة كما كانت ، مستسلمة كقطة عجوز . فسألها فى حنان ..

– لقد كنت محتجبة خلال العشرة أيام الماضية ولكننى لم أتذكر ذلك الا منذ دقائق وأنا أقطع الدرب عائدا من اجتماع عاصف أصابنى بالدوار .

ولقد حسبت وقت أن رأيت الظلام يخيم على المنزل أن مكروها ما قد أصابك ، فأنا لم أتعود منك الانطواء . أم ترى أنهـــا خطة جديدة ستسيرين على هديها فى الحياة ؟

– ليس عندى خطط جديدة يا ادريس ، ولكن الأمور تبدلت كثيرا الآن ..

ولما لم يفطن الى ما ترمى اليه ، فقد أجابها على الفور :

– حقا ما تقولين . ان الجزائر تشتعل بالنار ، وغدا ستنعقد هذه النيران ، وستمتد ألسنتها فى الفضاء البعيد . ان المعركة المقبلة ليست لشهر ، ولا عام . انها معركة مريرة سوف تمضى بنا سنوات طويلة مريرة ، وقد تمضى علينا .

وبان الاهتمام الشديد على عائشة وهى تنصت اليه . لم تكن خائفة ولكنها كانت تبدو قلقة . وراحت تقرض أظافرها الطويلة التى تحمل آثار طلاء مضت عليه أيام كثيرة . وقاطعته متعجلة :

– اذن لقد حدثت أشياء جديدة لم أسمع بها ؟

– انك تعرفين بالطبع قصة الانذار الفرنسى . والرعب الذى

اجتاح المدينة . والمئات الذين صرعهم رصاص الجند على التلال القريبة من هنا !! ..

واذ أجابت عائشة بالايجاب ، مضى ادريس مواصلا الحديث قائلا :

ــ لقد مر على تلمسان منذ أيام صحفي مصري قادم لتوه من القاهرة . كان معه تقرير عن الخطوات القادمة التي تنوي فرنسا اتخاذها ضدنا . ان نظرة واحدة على التقرير تكفي لتشعل رأسك شيبا وتسكت دقات قلبك المتتابعة ..

ــ وماذا قررتم اذن ؟

ــ المقاومة حتى الموت ، لاجدوى من ان نعالج الموقف عن طريق آخر ..

وارتسمت ابتسامة لطيفة على شفتي عائشة وهي تسأله مستنكرة :

ــ ولكنني اراك قد خرجت عن نطاق الخط الذي رسمته لحياتك . انك تكره العنف كما قلت ، وتكره التهور . وهذا القرار الذي اتخذتموه أليس فيه تهور ؟ هل فكرتم في موقف النساء والأطفال اذا اشتعلت المعركة ؟

ــ في الحقيقة لم نفكر في شيء من هذا . لقد تركنا للظروف ان تتصرف بنا كما تشاء ، واقول لك الحق أنني ماندمت على شيء في حياتي قدر ندمي على الأيام التي مرت منها وانا أتصنع التعقل وألزم جانب المنطق . لقد كان الواجب علينا جميعا ان نتهور منذ البداية ، ولن تكسب الجزائر المعركة حتى يتهور كل فرد من بنيها . لقد اكتشفت الآن وبعد فوات الأوان ، ان التهور في محاربة الفرنسيين .. غاية التعقل والمنطق .

لقد خسرنا حتى الآن الملايين من الأرواح وخسرنا كذلك سنين طويلة .

ولو أننا اندفعنا جميعا وتهورنا كلنا ، وفقدنا أضعاف مافقدناه ، لكنا قد كسبنا المعركة ، وكسبنا الوقت الذي ضاع .. والذي سيضيع .. ولكن لا داعي للأسف الآن ، فالحوادث تصنع نفسها ، وقد صنعت بنا هذا الموقف ، ولكنا سنحاول

جهدنا أن نتحكم في صنعها ، ونخضع كل الظروف لنا .

بدا ادريس وهو يتكلم شخصا آخر غير الذي تعرفه . وهذه النغمة التي تسمعها منه لم تسمعه يحكي مثلها ..

كان يهتز وهو يتحدث وكأنه يطلق النار في معركة . وعيناه اللتان كانتا نصف مغلقتان ابدا قد اتسعتا ، ونظراتهما أصبحتا اكثر حدة وأكثر جراة . وكانت عائشة تصغي اليه وكأنها تنصت الى أسطوانة موسيقى تحبها ، كان صوته رغم ماقيه من حنق موسيقيا لذيذ الوقع على سمعها ، يبدو ان كل شيء في الجزائر قد تبدل حتى ادريس .. وحتى نفسها ، وشعرت عائشة بتعب شديد يهد كيانها ، فنهضت وسارت الى البار الذي يتوسط الردهة ، وأخذت لنفسها كأسا ولادريس كأس آخر رغم يقينها أنه لايقرب الخمر أبدا . وكانت دهشتها شديدة عندما مدت له الكاس بيدها فاختطفه في شوق ، وعب مافيه في جوفه دفعة واحدة ، ثم ترك الكاس يسقط من يده ، وأسند ظهره الى الخلف ، ومد ساقيه على أرض الغرفة . وعندما انحنت عائشة لتلتقط بقايا الكاس المهشم هتفت في صوت خفيض :

ــ لقد تغير كل شيء فعلا يا ادريس . ولم ينبس ادريس ببنت شفة ..

***

عندما استيقظ ادريس في الفجر ، اكتشف أنه لايزال مكانه على المقعد الفاخر في منزل عائشة ، واكتشف كذلك أنه شرب أكثر من كأس وانه ثرثر بكلام كثير لم يكن من اللائق أن يتفوه به . واذ هم بالنهوض ومغادرة البيت كله على أطراف أصابعه ، فاجاه صوت عائشة يتردد بين جدران الردهة عاليا كالعهد به . فعاد الى مكانه وقد أغلق عينيه متصنعا النوم . وعندما هدأت الضجة في الردهة ، عاد ففتح عينيه نصف فتحة فاذا بها منتصبة أمامه ، جميلة مثل الحياة منيرة مثل القمر . ورفعت يدها فمسحت براحتها على شعر رأسه في حنان وهي تقول :

— لشد ماغيرتك الاحداث يا ادريس ، من كان يظن أن في استطاعتك أن تفرغ عشرة كئوس في جوفك مرة واحدة ·

وأحس ادريس بعد هذا باصداع يضغط على عظام رأسه بقسوة لم يحس مثلها من قبل ، وبألم في معدته يلوى أمعاءه ، ويدفع بها الى أعلا كأنها تجاهد متشبثة في مكانها حتى لاتخرج من فمه · ولما كان في حالة لاتسمح له بالإجابة فقد واصلت عائشة حديثها قائلة :

— انني لا أتعدى الحقيقة اذ قلت لك أن الليلة التي مضت كانت بمثابة خط وهمي كخطوط العرض والطول شطرت حياتي كلها · اني أحس احساسا صادقا أني ولدت من جديد · وكان من الممكن أن يتأخر موعد هذا اليوم لو تأخر مجيئك الى هنا ، وكان من الممكن كذلك أن يتقدم لو أسرعت الى من اليوم الأول الذي لاحظت فيه أن الظلام يخيم على منزلي ·

كانت تتحدث كمن تخفى في صدرها سرا رهيبا تريد أن تتخلص من كتمانه ·

وكان الاعياء قد استبد بادريس حتى لم يعد راغبا في أن يستمع الى شيء آخر ·

كان يود لو استطاع أن ينهض من مكانه ويهرب بعيدا عن المنزل وعن الدرب وعن تلمسان كلها · ولكن حتى هذه الرغبة لم يعد يقوى على تنفيذها · فعائشة تجلس أمامه تحكي وكأنها مصممة على أن تحكي الى النهاية · ونور الصباح يغمر السكون كله ، ومن الجائز الآن أن يراه أحد وهو خارج من منزل عائشة ، والحالة التي هو عليها تبيح لكل ذى عقل أن يتصور ماكان يدور بينه وبينها · وآثر ادريس أن يبقى في مكانه يستمع اليها ، فهذا شر أهون بكثير من أن يغادر المنزل هاربا · ولم تكن عائشة تنتظر منه جوابا أو اشارة لكي تمضى في الحديث ، بل ظلت تتحدث رغم عدم الاهتمام الذى يبدو عليه · فقد كانت تريد أن تتحدث حتى ولو تأكدت من أنه لايعير حديثها أذنا واعية ··

غير أن ادريس في حقيقة الأمر لم يكن منصرفا بكليته عن المرأة التي جلست أمامه تحكي له · بل كان ذهنه المشتت يغيب عنها أحيانا ثم يعود اليها في فترات متقطعة · وفي هذه المرة الأخيرة التي عاد فيها بذهنه وبسمعه الى المرأة التي تحكي بلا توقف ، وملامح وجهها تكاد تنفجر من الغيظ وكأنها تؤدى واجبا ثقيلا على نفسها ، كانت قد وصلت في القصة التي تسردها عليه الى احداث غريبة جعلت ادريس ينتزع نفسه من الغيبوبة التي احتوته لينصت اليها بكل جوارحه ··

— كان الضابط الثمل يجلس هنا مكانك ، تماما كما تجلس أنت الآن · وكان يحكي القصة بسذاجة وكأنني على علم بتفاصيلها · حكى في البداية كيف كان زوجي يجلس في الحانة التي تقع في مواجهة الميناء في الهند الصينية يحتسي قدحا من البيرة عندما اقتحم عليه الضابط الفرنسي الحانة ، ومسدسه في يده · كان الضابط الثمل الذي حكى القصة هنا يشهد المأساة من بدايتها · وقف الضابط الفرنسي أمام زوجي ينتفض غيظا وحقدا والشتائم تتدفق من فمه :

— لقد أقسمت أيها الكلب القذر على أنك لن تجد فرصة تهنأ فيها معها ··
لقد اختطفتها بجبن ولذلك فسأقتلك ··

ولم يتحدث زوجي المسكين ولم يرد عليه · وفي جنون بالغ أطلق الفرنسي الثمل نيران مسدسه ·· فسقط زوجي يتدحرج فوق الأرض ملطخا بدمه · وأمر الضابط جنديا كان يقف خلفه فحمل الجثة وألقى بها في مياه الخليج ، ثم أمر الجميع بالتحرك نحو الجبهة . فقد كان القاتل قائدا للفرقة التي يعمل فيها زوجي وكانت الفرقة في طريقها لتقاتل في الخطوط الامامية ·

ومن هناك أرسل خطابا الى القيادة العليا يبدى فيها أسفه الشديد لفقد الضابط مصطفى بن جعفر ·

ومن القيادة وصلني خطاب بنفس القصة الملفقة ··
زوجك فقد في الجبهة ·· وهو يقاتل أعداءنا بشرف ··
وعندما وصلت الى هذا الحد من القصة نشجت بالبكاء ،

والقت برأسها على راحة يدها ، ودموعها أخذت تنهال على خديها غزيرة مثل العرق ، حمراء فى لون الدم .

وصعق ادريس من هول ماسمع ، ونهض من مكانه وأسنانه تضغط على شفته السفلى فى قسوة وفى شدة . وانحنى الى جوار المقعد التى غاصت فيه عائشة وقال يسألها فى لهفة :

ـ اذن لقد قتلوه ؟!

وهزت عائشة رأسها واكتفت بذلك ..

لم تستطع أن تنطق فقد خنقت الدموع كلماتها فى حلقها ، ثم لم تلبث أن انفجرت مولولة فى صوت أشبه بالعواء ..

ومد ادريس يده اليها فأمسك براحة يدها وضغط عليها فى عنف وسألها وقد مال عليها :

ـ ولكن لأى سبب ، لماذا قتلوه ؟ ..

وأجابت المرأة وهى تبكى :

ـ لا أدرى شيئا ، ولم أسمع منه أكثر من هذا ، كل الذى أعرفه الآن أنهم قتلوه .. قتلوه ..

واذ وصلنا الى هذا الحد ، كان جسمها قد أخذ يهتز كله ، ووجهها أصبح محتقنا بلون النيلة ، فلطمت وجهها بشـــدة وبعنف ، وصرخت فى ادريس وكأنها جنت :

ـ انهم قتلوه .. هل تصدق ؟ !! ..

وقال ادريس فى هدوء :

ـ لم يعد هناك شىء من تصرفات هؤلاء الناس موضع شك يا عائشة .. انهم يفعلون كل شىء بنا ، نعم كل شىء .. حتى ما لا يعقل وما لا يصدق بحال ..

ومد يده اليها بمنديل لتمسح دموعها ، فأطاعت على الفور ، وراحت تجفف وجهها المبتل المحتقن ، واذ هدأت قليلا قالت وهى شبه شاردة :

ـ أما أنا فلم أكن أصدق .. لقد كانوا دائما مهذبون هنا ، لم أتصور أبدا أنهم يرتكبون الجرائم ، بل لقد دفعنى الايمان بهم الى حد تكذيب كل ما كان يقوله أهل تلمسان عنهم ، لم أكن أصدق حرفا واحـدا عنهم يا ادريس ، اذ لم يـــكن

مستساغا أبدا أن أصدق أن هؤلاء الرجال المهذبين ، يمكنهم أن يرتكبوا الجرائم ..

وعندما وثق ادريس أن المرأة المشتعلة حقدا وحزنا قد هدأت تماما ، نهض من مكانه الى البار ، فملأ كأسا لها .. ناولها اياه ثم قال قبل أن يعود الى مقعده :

ـ كنت اذن واهمة فى ظنك ، ان الفرد منهم يتصرف برشاقة وأدب عندما يكون فى حفلة راقصة ، ولكنه فى الحرب يتحول الى ذئب ، الى نذل ، يطلقون عليه لقب بطل ، وكلما أوغل فى النذالة ، ارتفع فى أعين الذين يشدونه من خلف بخيوط لا ترى انهم وباء يجب مكافحتهم فى كل مكان يظهرون فيه ، ولا أعرف سببا واحدا معقولا يجعل الناس يذعرون كلما ظهرت بينهم حالة حمى واحدة ، ويجعلهم يتصرفون ببساطة كلما ظهر بينهم جنود من هذا النوع .. انهم أخطر علينا من الحمى وأشد فتكا بنا ..

كانت عائشة تجلس مستسلمة وقد أراحت رأسها على راحة يدها اليسرى ، بينما راحت تمزق خيوطا رفيعة من طرف ثوبها فى عصبية وقلق ، عندما سألها ادريس ببساطة :

ـ وماذا عندك الآن للمستقبل ، هل تنوين البقاء هنا ؟ .

وأجابت عائشة وقد بدا عليها الاهتمام :

ـ أنا بصراحة لم أفكر فى هذا الأمر من قبل ، ولا أدرى ماذا يجب على أن أفعله ..

ـ ان الأمور واضحة تماما والجهة التى يجب أن تكونى فى صفها ليست بعيدة عن هنا ، ما عليك الا أن تقررى بسرعة وبحرية ، فأنا أرفض أن أفرض عليك حلا أو رأيا مخالفا ..

ونظرت اليه عائشة نظرة طويلة ، أحس ادريس أنها عرته من ثيابه ، وغاصت فى أعماقه ، ثم قالت وعيناها شاخصتان اليه فى ثبات وهدوء :

ـ قلت لك اننى لم أفكر فى هذا الأمر من قبل ، لأنه لم يعد يعنينى فى قليل أو كثير أن أموت الآن أو غدا ، لقد فقدت كل شىء كما ترى ، ولم يعد عندى ما أفقده ..

وأجاب ادريس في حزم :

– لم تفقدي شيئا كثيرا يا عائشة ، لقد فقد كل منا أشياء من هذا النوع .. ولكن بقي لنا ما يجب أن نحرص عليه ونعض بأسناننا ، بقيت الجزائر لنا وعلينا أن نحرص عليها ..

وغضت عائشة من بصرها ، وأخذت تهز رأسها في فتور ووهن ، ومضى ادريس في حديثه بنفس اللهجة الحازمة :

– أخشى أن يكون حديثي في نفسك وقعا سيئا ، فقد سمعتك مرة تقولين في ثورة شديدة عقب ذبح الطفل « أنا لبست جزائرية ، ولم أستفد شيئا لأنني كذلك ، ولا أظن الجزائر تخسر كثيرا بوقفي » لقد صرخت بهذا في وجهي ذات ليلة . وأظنك تذكرين هذا جيدا ..

وأجابت عائشة في همس :

– لقد قلت أشياء كثيرة لم يعد عقلي يتسع لها ..

– ولكن عقلي أنا لا يزال يتسع لها ولمثلها ، وقولك هذا خطأ كبير ، فنحن في حاجة اليك ، والجزائر في حاجة الينا ، وفي حاجة الى كل أبنائها ، غير صحيح أن الجزائر لا تخسر شيئا بموقفك . انها تخسر كثيرا ، وقد خسرت بالفعل لأن البعض منا قال في نوبة تمرد « ان الجزائر لا تخسر كثيرا بموقفي » ...

وردت عائشة في هدوء وقد استعادت شخصيتها الأولى شخصية الثائرة الجريئة المتهورة ..

– لا داعي لهذا الآن يا ادريس ، فقد مضى وقته والسنوات التي انقضت علينا منذ أن لت المأساة بنا ، مضت بنا كأنها كابوس ، انها لا تمضي بخيال الا كصفحة من صفحات التاريخ البالية ..

– أنا لا أتعمد أن أقسو عليك ، ولا أعاتبك ، ولكني أحس في أعماقي بشيء ما يجب أن أقوله لك .. قبل أن يفوت الأوان ، فأنا لست واثقا تماما أننا سنلتقي بعد اللحظة .. بل ان ايماني الذي لا أشك فيه اننا لن نلتقي ، وانت لا تدرين مدى العذاب الذي تحملته صامتا من أجلك ، انك في الواقع

من معدن رفيع غير أن الأصوات العنيفة التي مرت بنا قد غلفته بالصدأ ، ويوم كنت تصرخين في وجهي بهذه العبارة التي حفرت في نفسي أخدودا من الألم ، كان المئات من أبناء الجزائر يلقون حتفهم بطريقة بشعة ، مئات لا يملكون شيئا حتى ولا لقمة العيش ، ولكنهم ماتوا في سبيل الجزائر .. بينما كنا جميعا صامتين في أماكننا في انتظار أن تحدث المعجزة ..

– انك متغير اليوم يا ادريس ، بل يخيل الي انك تلوم نفسك معي ..

– بل هذا ما أعنيه تماما .. انني لا ألوم نفسي فقط ، بل أنا أحس نحوها باحتقار شديد ، لقد رأيت منذ أيام في سوق المدينة حادث أعطاني عزا .. شاب لا يملك حتى ما يغطي به جسده .. يلقي بقنبلة بين جموع الفرنسيين في نشوة وكأنه يرقص ، وعندما تناثرت الأشلاء في كل جانب ، وسال الدم في كل اتجاه ، كان يبدو مشرقا كأنه في حفلة زفاف ، حتى وهم يطلقون النار عليه ، كان كل ما في وجهه يبتسم ويشرق وعندما هوى على الارض جثة لا حراك بها ، والتف حوله الناس ابتعدت عن المكان هاربا .. فقد خشيت أن أمد يدي اليه فالوثه !! ..

عندما وصل ادريس عند هذا الحد كان قد فقد قوته كلها ، فانهار فجأة باكيا ، ورجل مثل ادريس عندما يبكي لا يمكن لقوة في الوجود أن توقفه ، فكل شعوره بالندم وشعوره بالنقص واحساسه بالموقف المحايد الذي وقفه طويلا بين الشعب وأعدائه .. كل هذا انفجر في نفسه فجأة فهزها بعنف ..

فلم يحتمل فانفجر في بكاء متواصل عنيف ، حتى عائشة انتابها التحول لموقفه ، فغادرت مقعدها الى البار ، ثم عادت وفي يدها كأس مدت به يدها لادريس ، ولكنه لم يتحرك من مكانه وكأنه لا يراها ، فعادت وعادت الكأس ، ثم رجعت مكانها في هدوء ، وجلست مكانها معتدلة يقظة ، وقد زايلها كل شعور بالحزن والندم ، وعندما انقطع ادريس عن البكاء ،

ظل فترة طويلة مكانه لا يتحرك ، وان كانت أنفاسه المترددة بين جنبيه فى سرعة تنبىء عن شدة الثورة التى تشتعل فى داخله ، ولأول مرة تشعر عائشة أن الظروف المحيطة بهـــا أخطر مما كانت تظن ، وأبعد مما كانت تتصور !! ٠٠ انهـــا خطيرة الى حد أن ادريس يبكى ، ادريس الذى كان يبدو دائما ثابت الايمان كالأنبياء ، أعمق من البحر الذى يهدر خلف تلمسان ٠٠

وهى نفسها كانت تبكى منذ لحظات ، ولكن أى فرق شاسع بين بكائها وبكائه ، كانت تبكى من أجل زوجها وولدها ، من أجل مشكلتها ، ولكن ادريس يبكى من أجل شىء آخر ٠٠ انه يبكى من أجل الأيام التى قضاها محاولا بكل قواه أن يبتعد عن قلب المشكلة ، أن يكون عاقلا ، يفكر فى قضية الجزائر ، ولا يشترك فيها ، ان دموعه الآن كانت من أجل الجزائر !!

وهى تشعر الآن الى أى حد كانت مشكلتها تافهة ، وكان مسلكها معيبا وخاطئا ٠٠

ولكن هذه الدموع التى سكبها ادريس منذ لحظ غسلت نفسها وطهرت روحها ، كانت آثمة وهى الآن تحس بنور الشرق يضىء قلبها ، وكانت عنيدة ، ولكنها على استعداد تام لكى تتبع اشارة من ادريس بأن تقتل نفسها ، ولكن العجيب فى الأمر أنها لا تقوى على اظهار عواطفها الصادقة ، ان ثمة حاجز يفصل بينها وبين ادريس ، وبين أهل تلمسان جميعا ، وربما بينها وبين أهل الجزائر كلهم ، لعل سببه هذا الاعتقاد الخاطىء بأنها امرأة ملوثة ، وهى ليست ملوثة ، ولم تكن كذلك فى يوم من الأيام ، انها لم تمنح نفسها لأحد بعد فقد زوجها ، لا نفسها ، ولا جسمها ، ولكنها عندما فوجئت بنظرات الناس تحمل هذا الاتهام ، لم تحاول أن تنكره ، بل كان يلذ لها أن تتصرف بما يؤكده ، كانت عنيدة ، وقد ساقها العناد الى هذا الطريق ، وهى تخشى أن يكون ادريس مثل غيره يعتقد فى قرارة نفسه بأثمها ، وان كانت نظراته لم توجه اليها هـــذا الاتهام أبدا ، ولعل هذا راجع الى طبيعته ، فهو مهذب الى حد

بعيد ، انسان من طراز كانت تتمنى أن يكون لها ٠٠

توقفت عائشة عن تفكيرها عندما نهض ادريس من مكانه فاتجه الى حوض الماء القريب من البار ، فغسل وجهه ورأسه وعاد الى مكانه مسرعا ، فألفى عائشـــة تجلس جلسة حزينة تمحن فى شرود ، وعندما استوى جالسا ، قال بلهجة سريعة ولكنها ثابتة :

ـ أرجو أن تكونى قد وصلت الى قرار فالوقت يسرع بنا

ونظرت اليه عائشة نظرة ضعيفة ليس فيها بريق التحدى الذى كان يشع دائما من عينيها ، وقالت فى صوت خافت :

ـ لم أقرر شيئا ، ولكنى على استعداد لأن أتبع اشارتك ٠٠

ومضى ادريس يشرح لها الظروف المحيطة بالمدينة والأخطار المحدقة بها ، والمجزرة التى ستحدث غدا ، وقلقه بشـــأن زوجته ، وبشأنها ، ثم اقتراحه بأن تغادر المدينة مع زوجته الى التلال القريبة من تلمسان حتى تهـــدأ المعركة ، وتنكشف الأمور ٠٠

واذ انتهى ادريس من حديثه ، سألته عائشة على الفور :

ـ ولكن كيف أغادر تلمسان ، والجنود يحيطون بها من كل جانب ، ويسدون المسالك على أهلها ؟ ٠٠٠

ووجد ادريس الفرصة سانحة لكى يطرق موضوعه مباشرة فهو كان يفكر منذ الأمس فى طريقة للاتصال بصبره ، ولكنه كان يخشى أن يذهب اليه بنفسه ، حتى لا يتمكن العيون الذين يتبعونه من معرفة مكانه ، وهى الأمنية التى تداعب نفوس الفرنسيين منذ أن قامت المعركة ، وعائشـــة هى المخلوقة الوحيدة فى تلمسان التى تستطيع أن تذهب الى صبره دون أن يشك أحد فى زيارتها له ، فهى ليست مشبوهة عند الفرنسيين بل هى لا تزال فى عرفهم صديقة ، عندما انتهى ادريس على هذا القرار قال لها على الفور :

ـ انك ستغادرين تلمسان مع زوجته ، وستـــكونين فى أمان مع الرجال الذين يتولون حمايتك ، وعندما تصلان الى التلال ، ستمكثان أياما هناك حتى يتجلى الموقف ، والحق نكما

ومن هناك نستطيع أن ندبر أمر المستقبل ..
وأجابت عائشة :

– انني على استعداد لأن ألبي أوامرك ، ولكن ما هو الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه ، ثم استدركت قائلة .. هل تعرف زوجتك الطريق ؟ ..

– ان زوجتي لا تعرف الطريق ، بل لا تدري شيئا عن رحيلها حتى الآن ، بل سندبر الأمر ولا ، وعندما ينتهي كل شيء ، سنفاجئها بالأمر كله ، ولن يكون أمامها سوى طريق واحد لتختار .. وهو الرحيل من هنا ..

– عظيم ، ولكن .. كيف سندبر الأمر ؟ ..

– سأسلمك خطابا الآن ، وما عليك الا الوصول الى العنوان الذي يحمله الخطاب ، وهو ليس ببعيد ، انه هنا في تلمسان على مسافة دقائق بالسيارة . سلمي الخطاب ، وتسلمي الرد عليه ، وعودي الينا بأسرع مايمكن ، فالمجزرة سوف تقع غدا ، ومكانك ليس هنا الآن ، بل سيكون في الجبل مع الذين ذبحوا طفلك لتواجهين معهم الذين اغتالوا زوجك في ذلك المقهى البعيد ..

وانكب ادريس يكتب الخطاب بسرعة ، فلما انتهى من الكتابة طواه داخل الظرف وكتب العنوان على عجل وسلمه اياها ، وقال لها وهو يتأهب للخروج ..

– عودي بسرعة ، فالوقت ليس في صالحنا الآن ، وكل دقيقة تمر سيكون لها شأن بعيد ..

وعندما أصبح ادريس داخل منزله فوجيء بزوجته تقف على رأس السلم كمن كانت تتأهب لاستقباله . وعندما وقع بصرها عليه بادرته قائلة :

– أين كنت طول الليل ، لقد توقعت كل شيء .. الا أن تعود على قدميك ..

ولم يرد ادريس عليها بل جذبها من يدها ودخل بها الى

الحجرة ، ثم دفعها بيده فأجلسها على مقعد أمامه وقال لها على الفور :

– ليس الآن مجال الحديث في هذا الأمر ، سأحكي لك فيما بعد كل شيء عندما يكون أمامنا متسعا من الوقت ، أما الآن فعليك أن تحملي معك كل ماتستطيعين حمله لتغادري المدينة في الليل ..

وشهقت زوجته في ذعر ..
– أغادر المدينة ؟ هذا مستحيل . لن أغادر تلمسان الا معك.

– دعينا من العواطف الآن ، وحكمي العقل في الموقف الغريب الذي نواجهه ، ان وجودك معنا هنا لن يفيدنا شيئا ، بل ربما كان عبئا علينا . وعندما يبدأ الهجوم سيكون كل منا في عالم آخر لايدري عما يدور حوله شيئا . وستكونين لنا نظيرة هدفا لنزوات الجند وجرائمهم ، وأنت تعرفين أكثر مني ماذا وراء خمسة آلاف جندي فرنسي مسلح أطلقت لهم حرية التصرف في المدينة ..

وارتفع نحيب الزوجة بالبكاء وهي تنصت الى زوجها . انها لم تفكر قبلا في مغادرة المدينة وحدها . وهاهي تتلقى الأمر بضرورة مغادرتها لتترك زوجها خلفها يواجه وحده مصيره بلا نصير . وقلبها يحدثها الآن أنها ستبقى وحيدة أبد الدهر ، فلن يترك الجنود زوجها يفلت من أيديهم . سيموت المسكين في ريعان شبابه كما مات الكثيرون من قبل . ولكن ما الحيلة والظروف العصيبة تصدر أحكامها بالاعدام على رجال الجزائر ، وليس هناك حل وسط للموضوع ، الاعدام أو العار ، وهي لاترضى لادريس العار أبدا ، فقد عاش حياته كلها رجلا مرفوع الرأس كالراية . أية أحداث ضخمة مرت بحياتها منذ أن تعرفت اليه ، وأحبته . أحبت فيه كبرياؤه وغموضه ، وبنيانه المتين ، وهيئته الجميلة ، واتزانه الوقور .. واخلاصه الذي لم تشك فيه لحظة حتى خلال الليالي العديدة التي قضاها عند عائشة . كانت فقط تشعر بغيرة قاتلة ، فهي تحبه وتخاف عليه . وكانت

معه دائما عندما ألقى القبض عليه ، وعندما طردوه من الخدمة وعندما ضيقوا عليه فى الرزق ، وحاربوه فى معاشه ، وطاردوه فى كل مكان . وكان هو دائما هادىء رزين لم تحركه هذه الأحداث أبدا ، ولم تزحزحه عن موقفه ، وهى تشعر الآن بندم قاتل ، فهى السبب فى كل ما أصابه من أضرار . فلولاها لكان الآن حرا يقف بين الفريقين المتقاتلين موقف حياد . فهى شقيقة الرجل الذى يقود الحملة ضد الخونة داخل المدينة . الناس فى تلمسان يعرفون هذا ، والفرنسيون يعرفون هذا .. ومن أجل هذا أيضا نالته كل هذه الأرزاء . كانت تبكى وعقلها الباطن يتحدث اليها . وتنظر الى زوجها كالمجنونة ، فقد تكون هذه آخر مرة تراه ، بل هى موقنة أنها آخر مرة ، وأن تحيتها الأخيرة له ستكون بمثابة وداع . ولم يكن يبدو عليه أنه يهتم بشىء آخر ، سوى مصير المدينة غدا عندما تنشب المعركة . كان يقلب أوراقا فى يده ، يبحث فى أدراج مكتبه عن أشياء قد تكون ذات فائدة فى الساعات العصيبة المقبلة . وغادرت نطيمة الحجرة تبحث عن حاجياتها الضرورية لتستعد للرحيل . ولم تمض ساعة حتى كانت تقف أمامه من جديد تنظر اليه فى رعب وفى قلق . وعندما رفع رأسه اليها قال على الفور .

ـ ستغادرين تلمسان فى الليل ، وسألحق بك فى المساء اذا قدر لى أن أفلت من نيران المعركة .

وقالت الزوجة وصوتها تخنقه العبرات :

ـ ولكن كيف سأغادر تلمسان ؟

ـ لقد أرسلت لأخيك الآن أطلب اليه تدبير هذا الأمر .

وسيأتينى الرد سريعا .. وسأعرف مكانك بالطبع فسأتصل به فور مغادرتى تلمسان .

ـ اذن فقد قضيت الليل عنده ؟ ولكن كيف استطعت الافلات من العيون التى تحيطك ؟ ..

ـ لم أذهب اليه ولم أره . ولكنى ارسلت اليه رسولا .. ارسلت اليه عائشة .

وبدا على الزوجة ذعر شديد وألم بالغ وكأنه غرز فى قلبها نصلا طويلا ..

وأخذت تردد الاسم فى استنكار بالغ ، وهى تصرخ من أعماقها :

ـ كيف تجرؤ على ذلك . انها قذرة تفعل أى شىء فى سبيل نفسها . ستعرف مكانهم ، وسيعرف الفرنسيون ذلك على الفور . أية جريمة ارتكبتها الآن فى نوبة اشفاق على مصيرى ..

كانت الزوجة تصرخ وكأنها مسعورة . وتنظر الى زوجها نظرات حاقدة ملتهبة بعواطف شتى يدرى هو كنهها . وعندما انتهت ثورتها العارمة ، رد عليها فى هدوء :

ـ انها ليست قذرة ، وليست خائنة . انها الآن فى مهمة فى سبيل الوطن . لقد فقدت المسكينة زوجها ، وفقدت وحيدها ، ولكن بقيت لها الجزائر ، وهى أحرص عليها منا ، اذ لم يبق لها غيرها ..

وستغادرين تلمسان معها ، فهى ليست مشبوهة عند الفرنسيين . بل حتى لو قطعوا عليها الطريق فسيدعونها تمر .. فهى لاتزال ـ فى عرفهم ـ صديقة . وستكونين معها فى أمان . فهى على استعداد لأن تقتل نفسها فى سبيل نجاتك . لقد ولدت عائشة من جديد وعلينا أن ننسى الماضى لو كان ثمة ماضى لها . لقد دفعناها نحن الى هذا الطريق بموقفنا حيالها . وأنا واثق أن هناك الكثيرات مثلها فى الجزائر يتحينون فرصة نفتح فيها لهن أحضاننا فيرتمين فيها بصدق وبحرارة .. لقد صاحبت تصرفاتنا أخطاء كثيرة فى بداية حركتنا ، حتى اننا كنا نضع كل من يرغب فى الاتصال بنا تحت منظار عجيب ليكشف لنا عن حقيقة معدنه .. وكان المنظار قاصرا فلم يقم بواجبه ، كان يكشف لنا عن الناس فى جانبين اثنين فقط . فهو اما خونة ، واما مخلصين لنا . وهكذا ترين أننا أخطأنا جميعا ، فقد كنا نبحث عن ملائكة . ومن الصعب جدا العثور عليهم الآن فى شعب حاول الاستعمار عشرات السنين قتل

روحه والقضاء على خير عناصره . ان قضيتنا في حاجة الى كل أهل الجزائر والأخطاء الصغيرة لا تؤثر في معدن الناس ولاتتحكم في سلوكهم . ولكن موقفنا البارد منهم هو الذى يدفع بهم فى هذا الطريق الخاطىء الى مالا نهاية ..

***

كان الزوج يلقى نظرة أخيرة على السـلاح الذى يحمله ، عندما دق الباب دقات سريعة متتالية ، وبعدها برزت عائشة مجهدة تلهث كأنها قطعت الطريق وثبا على قدميها وهب ادريس واقفا يستقبلها فى لهفة ويسألها اذا كانت قد وفقت أم لا فى مهمتها الصعبة ، وارتاحت نفسه كثيرا عندما هزت عائشة رأسها علامة التوفيق ..

وعندما استطاعت التقاط أنفاسها المجهدة أخذت تصف له على الفور كيف ذهبت وكيف التقت بالرجال هنـاك ، نفس الرجال الذين ذبحوا ولدها ..

ـ كم ضاقت نفسى بهم عندما وقع بصرى عليهم . ولكن بعد حديث طويل خرجت من هناك وأنا مرتاحة الى أن الذى فقدته كان مساهمة منى فى المعركة . ما أغرب منظر هؤلاء الرجال وهم فى هدوئهم الغريب وكأن أحداثا رهيبة لا تمر بهم .. وكم امتلأت نفسى حقدا على حياتى وأنا أجر قدمى خارجة من هناك ، انتزعهما بصعوبة وكأنى انزعهما من وحل كثيف يغطى وجه الأرض .

كانت نظيمة تستمع اليها غير مؤمنة بما تقول عائشة . هذه المرأة عاشت حياتها حتى أذنيها فى الخيانة ، وهل هناك خيانة أكثر من فتح أبواب منزلها لرجال الجيش الفرنسى ، والمعركة ناشبة ، لايمكن أبدا أن تتحول دفعة واحدة هكذا ، لابد أنها حيلة . هذه المرأة شؤم وستجر المصائب على الجميع كما جرت المصائب على زوجها ووحيدها ..
ولكن الزوجة كتمت شكوكها فى نفسها ، واستسـلمت

للمصير الذى فرض عليها ، وأصاخت سمعها جيدا لعائشـة وهى تقول :

ـ سنذهب فى الليل الى أشجار الكروم . سيكون فى انتظارنا دليل هناك ، وسنعبر الوادى ، ثم نتجه ناحية الشمال الى تل يبعد عن هنا عشرة أميال ، ولا أظن أنها ستكون رحلة ممتعة ، ولكنا سنقطعها على أية حال ..

ـ اذن أمامك ساعة واحدة لتتأهبى للمسير ..
وردت عائشة على الفور :

ـ أنا متأهبة بالفعل ، فقد عرجت على منزلى قبل أن أحضر الى هنا ..

ـ مع السلامة اذن ، فالوقت يمر بسرعة . وكان بودى أن أذهب معكما الى هناك ، غير أنى أخشى أن يصيبكما من وجودى معكما ضرر لا أدرى مداه .

***

كانت ساعة الوداع عصيبة للغاية ، ارتمت الزوجـة فى أحضان زوجها تنشج بالبكاء ، ووقفت عائشة فى جانب بعيد متأهبة للرحيل ، وقد حملت معها متاعها القليل وصورة التقطت لها مع زوجها وولدها حرصت على أن تأخذها معها فى رحلتها الغريبة الى مصيرها المجهول . ولكنها لم تدر سببا للقلق الذى تحسه فى نفسها وهى ترى نظيمة تعانق زوجها وتلتصق به حتى كأنهما خلقا ملتصقين ، وسيظل كل منهما ملتصقا بصاحبه الى آخر الزمان . انها تغبط نظيمة فعلا ، بل تحسدها أحيانا لأن لها زوجا من هذا الطراز . وهى تحب ادريس فعلا وتتمنى لو كان لها . ولكنها لم تكره نظيمة أبدا ، لا لهـذا السبب ، ولا لغيره من الأسباب ، بل هى تشـعر نحوها الآن بحب ، ومصيرها الذى ارتبط بها فى هذه الرحلة العجيبة سيزيد من حبها حتما وسيقويه .
وعندما انتهى الزوجان من العناق ، تراجعت الزوجة الى الخلف ، ثم استدارت على عقبيها ومضت نحو الباب لاتنظر خلفها

فقد كانت الدموع تملأ عينيها ، وتحجب الرؤية عنهما ٠ ٠ وتقدمت عائشة من ادريس فمدت له يدها تصافحه ٠ وتمنت لو أبقت يدها في يده الى آخر العمر ٠ ولكن الزوجة التي تنتظر عند الباب ، والظروف نفسها لم تكن تسمح بأكثر من هذا ٠٠ فتقدمت في جرأة وقبلته قبلة صغيرة ٠٠ في فمه ٠ ثم استدارت هي الأخرى تقطع أرضية الحجرة في خطوات ثابتة نحو الباب الخارجي حيث تنتظر نظيمة في سكون تحاول أن تبتلع دموعها في صمت ٠٠

***

جلس ادريس يفكر بعد رحيل زوجته وعائشة في المصير الذي كتب عليه أن يواجهه غدا ، وهو مصير لا يحزنه كثيرا غير أن تفكيره كان دائم التركيز على الطريقة التي سيتم بها ٠ هل سيقتله الفرنسيون ميتة شريفة ، أم أنهم سيعمدون الى تمزيق لحمه قبل أن يزهقوا روحه بضربة واحدة ٠ ان الافلات من المصير ضرب من المستحيل ٠ ولكنه سيقاوم جهد الطاقة ، ويكفيه انه سيحقق أمنية طالما استبدت بنفسه ٠٠ وهي الموت في المعركة

وهو سعيد الآن اذ لم ينجب أطفالا يواجهون الضياع من بعده ليس هناك من يهمه أمره الا زوجته ، وهي تستطيع أن تعيش بعده على أية حال ٠

وسرح بعقله في أمر عائشة ، هذه المسكينة هي الأخرى ، أية مفاجئات عجيبة سوف تهز نفسها حتى القاع خلال الاعوام التي سيقدر لها أن تعيشها في المستقبل ٠ وتحسس شفتيه بأصابع مرتعشة ٠٠ فعلى هذه الشفاه طبعت عائشة قبلة كان يتمنى لو استمرت الى الأبد ٠ فهو الآن بينه وبين نفسه لا يخشى أن يعترف بأنه أحبها بعنف ، وتمنى لو كانت له زوجة من هذا الطراز ، جريئة ومتهورة ، وهي الصفات التي كان تنقصه دائما ٠٠

كان الليل قد خيم على المدينة ، والحركة داخلها قد أصبحت مضطربة ، فعلى طول الطريق الرئيسي تدفق الآلاف من سكانها كأنهم نهر ينحدر بسرعة رهيبة وقت الفيضان ، كل منهم يحاول أن يجد له مهربا منها ٠

ففي الصباح الباكر سوف ينفذ الفرنسيون انذارهم ، وسيقتحمون المدينة من ثلاث جهات بحثا عن الفدائيين والسلاح ٠٠ وكان الصراخ المنبعث من الأطفال والنساء أشبه بصوت أمواج بحر ثائر تلطم صخر الشاطئ بحطام سفينة غارقة ٠ ولكن هذا البحر المتدفق من البشر توقف فجأة ، فقد سدت الطريق عليه مئات العربات التي راحت تجري فوقه تحمل أغنياء المدينة في اتجاه التلال ٠ واختلطت العربات المجنونة ، بأمواج البشر التي راحت تهرول مذعورة تتلمس طريقها وسط الضجيج والصخب ٠٠

وخارج المدينة كان السكون يشمل كل شيء ٠ وعائشة ونظيمة تقطعان الوادي الضيق في حذر ، والدليل يتقدم القافلة ، وعائشة تقتفي أثره ، ومن ورائها تسعى نظيمة منهوكة القوى شاردة اللب ، تكاد تفقد عقلها كلما فكرت في المصير الذي تركت زوجها يواجهه ٠ ولم تكن رحلتها سهلة ، بل كانت محفوفة بالمخاطر ٠ وكان عود حطب واحد يتكسر تحت أقدام احداهن كفيل بالقضاء على الجميع ٠ وعند الفجر كانا قد وصلا مع الدليل الى التل الذي تنتهي الرحلة اليه ٠ وعندما جلست المرأتان جنبا الى جنب فوق التل ينظران الى بعيد في اتجاه تلمسان ، كانت كل منهما تضع يدها على قلبها ، فقد حانت الساعة وسيبدأ الهجوم بعد لحظات ٠

وعندما انطلق أول مدفع يقصف المدينة بقذائف لها صوت الرعد ، هبت المرأتان على أطراف أصابعهما وكأنهما يحاولان أن يريا بأعينهما مايدور داخل تلمسان ٠ وتوالت القذائف تدك المدينة ، وألسنة النار أخذت تندلع وترتفع في الفضاء الى مسافات بعيدة ، وحجبت السماء عن تلمسان وعن التلال المحيطة بها مظلة كثيفة من الدخان سوداء كريهة خيمت على المدينة وكأنها كابوس مفزع ثقيل ٠ ولم تتحرك احداهن حتى الظهر ٠ كانت الطلقات قد هدأت ، ومظلة الدخان المنعقدة في

سماء المدينة أخذت تنقشع .. تحت سياط الريح التى هبت تدفعها فى اتجاه البحر .

ـ لقد هدأ كل شىء الآن فى تلمسان . وتغير كل شىء فيها أيضـا ..

هكذا همست عائشة ، وهى شبه مذهولة . وعندما عادت كل من المرأتين الى مكانها فوق الارض ، نظرت كل منهمـا الى الأخرى نظرة غريبة . ولم يلبثا أن تعانقا بشدة .. وقد أغرورقت عيونهما بالدموع ..

وعندما هدأت كل من المرأتين بعد البكاء العنيف ، كان النهار قد أوشك على الزوال والطريق الذى يصل بين التلال وتلمسان يبدو أحيانا فوق القمم ثم يختفى خلفها واشجـار الزيتون والبرقوق وزراعة الكروم تمتد على جانبيه . وأريجها يعبق فى الجو ، وأسراب البجع تحلق فوقه ، والجماعات التى استطاعت أن تفر من المذبحة تتحرك على الطريق كأنها أشباح يجر بعضها بعضا فى أعياء شديد ، الذين استـطاعوا أن يصلوا منهم الى التل لم يتمكنوا من صعوده ، فارتموا عنـد السفح وراحوا فى غيبوبة ، حتى الدماء التى تغطى وجوههم ، وتلطخ ملابسهم الممزقة بقيت مكانها ، وقد تجمدت واستحالت الى طين بعد أن اختلطت بها الأتربة والرمال ..

ثمة جنود من صفوف المجاهدين كانوا يظهرون أحيانا بين الجموع التى يلفظها الطريق ، جنود فقدوا بنادقهم ، وفقدوا ملابسهم ، وفقدوا بعض أجزائهم ، بعضهم يستند على ذراعه آخر ، وبعضهم يزحف فى أعياء ، والذين كانت جراحهم أقل بشـاعة كانوا يجرون أقدامهم فى يأس وعيونهم مثبتة عـلى التل الذى يبدو فى نهاية الطريق ، وكلما ظهر واحد منهم تطلعت المرأتان فى اهتمام نحوه ، فمن الممكن أن يكون هو ادريس ، ولكن الخيبة كانت من نصيبهما دائما كلما وصل الشبح الذى يتحرك على التل ، فاذا أصبح قريبـا منهمـا هجمتا عليه فى شوق يسألانه عن ادريس ، فاذا أجاب بالنفى رجعتا الى مكانهما صامتتين ، الحسرة تملأ قلبيهما والدموع تحجب الرؤية عنهما ..

واذ به خذ المساء يزحف على التلال ، وعلى الطريق ، على

الكون كله ، انقطع سيل الفارين من المدينة ، وأصبح الطريق الى امتداد البصر خاليا تماما ولا حركة عليه ..

وأصبح الأمل ضعيفا فى عودة ادريس هذا المساء عـلى الأقل ..

كان الاعياء قد هد كيان المرأتين ، وسلب الحيوية ، فارتميا على أرض التـل يحاولان النوم رغم أناة الجرحى ، وصراخ الأطفال الذين جنوا عندما نشبت المعركة ، ووقع اقدام الجنود الذين يحاولون تنظيم الصفوف على التل استعدادا لهجوم مفاجىء قد يشنه الافرنسيون عليهم ، غير أن الاعياء الذى استبد بهمـا كان أقوى من الصراخ والأنين ووقع خطوات الجند الثقيلة ، وعندما تأهبت عائشـة للنوم مدت يدها فى الظلام تتحسس مكان لطيمة ، وعندما اشتبكت أيديهمـا ضغطت كل من المرأتين على الاخرى فى حنان : وقالت عائشة فى همس مسموع :

ـ سيعود فى الصباح ، انه حتما سيعود ..

وبكت لطيمة ولم تتكلم .. ثم راحا فى نوم عميق ..

***

وستمضى أيام طويلة وهما فى انتظار الرجل الذى أحبتـه كل منهما فى صدق . سينتظران عودته طويلا .. ولـكنه لن يعود .. فقد كتب دريس صفحة مجيدة فى تاريخ تلمسان .. كتبها بدمه ..